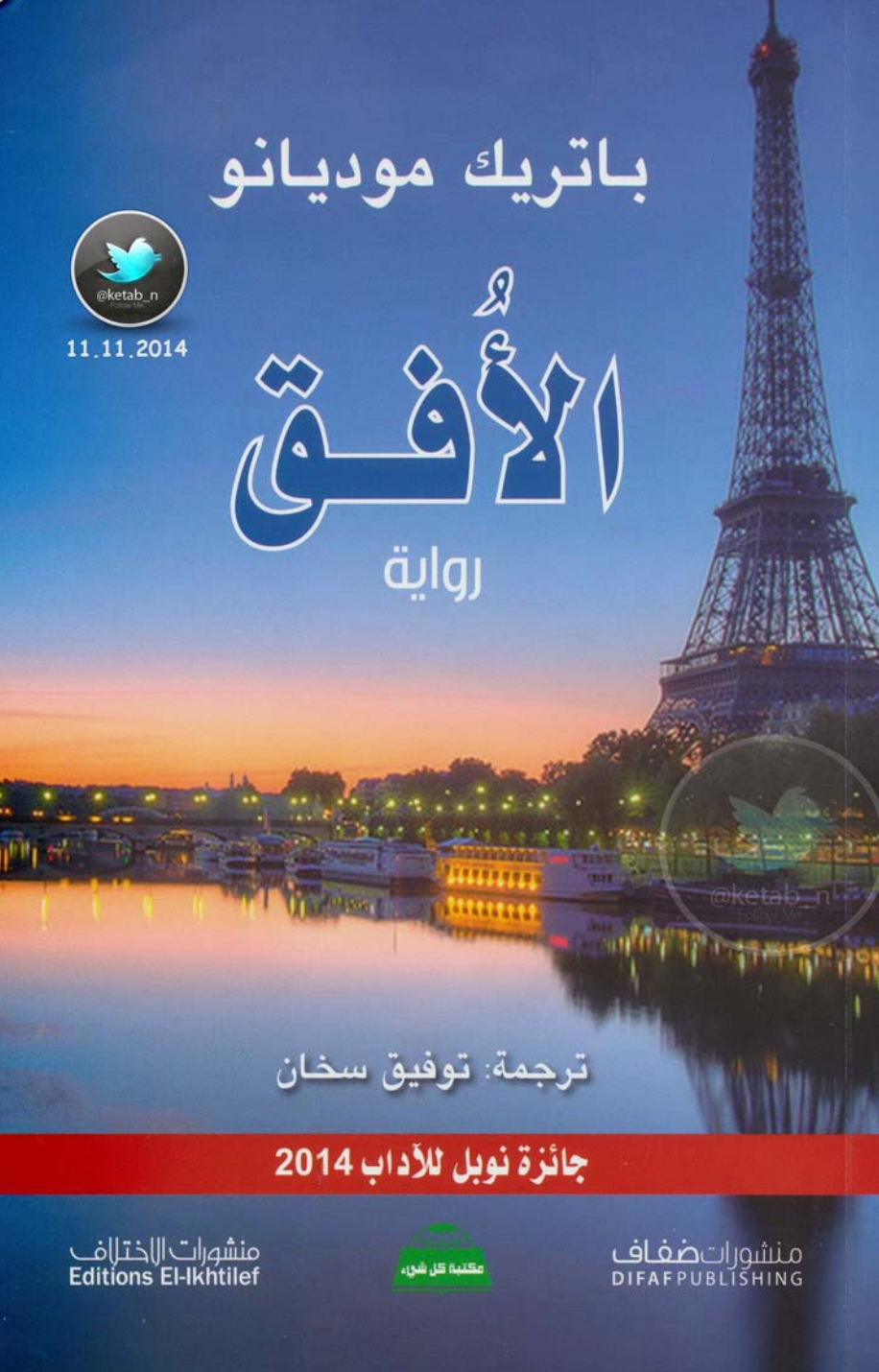

@ketab_n
Follow Me
11.11.2014

باتريك موديانو

الأفق

رواية

ترجمة: توفيق سخان

جائزة نوبل للآداب 2014

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

مكتبة كل شيء

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

@ketab_n
Follow Me

باتريك موديانو

الأُفُق

@ketab_n

ترجمة: توفيق سخان

رواية

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

Twitter: @ketab_n

Cet ouvrage, publié dans le cadre du Programme
d'Aide à la Publication Georges SCHEHADE, bénéficie
du soutien du Ministère des Affaires Etrangères et Européennes,
du Service de Coopération et d'Action Culturelle de l'Ambassade
de France au Liban et de l'Institut Français".

Twitter: @ketab_n

يتضمن هذا الكتاب ترجمة النسخة الفرنسية لرواية
L'horizon
de
Patrick Modiano

ترجم هذا الكتاب بموجب الاتفاق الموقع
بين منشورات ضفاف وEditions Gallimard
© Editions Gallimard, Paris, 2010
حقوق الترجمة العربية محفوظة لمنشورات ضفاف بيروت

الطبعة الأولى
1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-614-01-1002-8

جميع الحقوق محفوظة

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com
هاتف الرياض 0096650933772
هاتف بيروت 009613223227

منشورات الاختلاف
Editions Elikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/ فاكس: 676179 21 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

Twitter: @ketab_n

منذ زمن ليس بالبعيد أخذ بوسـمان يتأمل فترات من شـبابه، فتـرات منعزلـة، حـادة الفواصـل، ووجوهـا دون أسـماء، ولقاءات هاربة. كانت كل هذه الأشياء تنتمي إلى ماض بعيد، ومع أن هذه الأحداث القصيرة لم تكن تمت بأية صلة إلى باقي فترات حياته، فقـد بقيـت عالقـة فـي حاضر سـرمدي. لطالما تسـاءل عنها، لكن الإجابات ظلت على الدوام غائبة. سـتبقى هذه المِزق بالنسـبة له لغـزا محيـرا. هكذا شـرع مؤخـرا بوضع قائمة لها، وهو يحاول مع ذلك أن يحدد نقط ارتكاز لها: تاريخا ما، مكانا محددا، أو اسما لم يعد يذكر كتابته على نحو صحيح. كان قد اقتنى دفتر مذكرات صنع غلافه من جلد أسود وكان يحمله في الجيب الداخلي لسترته مما كان يسمح له كلما مرت بذهنه واحدة من تلك الذكريات المعتمة بتدوين ملاحظات في أي وقت من أوقات اليوم. لطالما رغب في أن ينخرط في لعبة قِوامُها التأني والصبر. لكن ما أن يعود بالزمن إلى الوراء، حتى يخامره شعور بالندم: لماذا تتبع هذا المسار دون غيره؟ لماذا جعل ذلك الوجه أو ذلك الشـخص الذي يعتمر قبعة غريبة من الفرو والذي يمسك كلبا صغيرا بواسطة سلسلة يتيه في غياهـب المجهـول؟ يشـعر بالدوران كلما فكـر فيما كان يكمن أن يحدث ولكنه لم يحدث.

Twitter: @ketab_n

تُـوازي هـذه النُتف من الذكريات سـنوات عمركَ وقد شَـقت مقاطـع الطرقـات مسـار حياتـك وشُـرعت أمامـك المخـارج تلـو المخارج لدرجة تشـعر بحرج الاختيار بينها. كانت الكلمات التي يملأ بها دفتر مذكراته تشير إلى المقال المتعلق ب»المادة المظلمة» والـذي كان قـد بعـث به إلى دوريـة تعنى بمجال الفلكيات. خلف الأحـداث المحـددة والوجـوه المألوفة يقبع إحسـاس بكل ما صار لاحقـا مـادة مظلمـة: لقـاءات قصيـرة، مواعيد لم تتحقق، رسـائل ضائعة، أسماء وأرقام هواتف ترتسم في مذكرة قديمة والتي نسيتَها وكل أولائك الذين واللواتي مررت بهم في طريقك دون أن تدري بذلـك. وكمـا في علـم الفلك، فإن هذه المادة المظلمة كانت أكبر حجمـا قياسـا بالجـزء الظاهـر من حياتك. لقد كانـت غير محددة. وهو لا يحتفظ في مذكرته سوى بذلك البصيص الذي يومض في جوف هذه الظلمة. كم كان وانيا هذا الوميض بحيث أنه كان يطبق عينيه ويركز انتباهه بحثا عن جزئية دالة ستسعف في إعادة صياغة الـكل، غيـر أنـه لا يوجد أي كل، لا شـيء سـوى هذه الشـذرات، غبار النجوم. لشـد ما رغب في أن يغوص في أحشـاء هذه المادة المظلمـة، أن يصـل الخيـوط الممزقة بعضهـا ببعض، نعم، ويرجع إلـى الـوراء ليمسـك مرة أخرى بهذه الظـلال وأن يعلم أكثر عنها. مُحال ذلك. إذن لم يتبق له سوى العثور من جديد على الألقاب. أو حتى الأسـماء. لعلها تسـعف كنقط جذب. سـتبعث إلى سـطح الوجود انطباعات ملتبسة وجدتَ العناء الكبير في توضيحها. أهي من طبيعة الأحلام أم من نسج الواقع؟

Twitter: @ketab_n

ميروفي. لقب أو اسم؟ لا داعي للكثير من التركيز هنا مخافة أن يخبو الوميض إلى الأبد. من الجيد أنه كان قد دون الاسم في مذكرته. ميروفي. لعل التظاهر بالتفكير في شيء آخر يعد الوسيلة الوحيدة لجعل الذكرى تتحدد من تلقاء ذاتها، بشكل طبيعي، دون أن يرغمها المرء على ذلك. ميروفي.

كان يسير على طول شارع الأوبرا، حوالي الساعة السابعة مساء. هل كان الزمن كذلك والمكان ذلك الحي القريب من منطقة الغران بُولفار والبورصة؟ يتراءى وجه ميروفي الآن أمامه. شاب ذو شعر أشقر مجعد يرتدي صدرية. كان يبدو له في لباس نادل، شأنه شأن أولائك الأشخاص عند مداخل المطاعم أو عند أماكن الاستقبال في الفنادق الضخمة الذين يوحي مظهرهم بأنهم أطفال شاخوا قبل الأوان. ميروفي هو الآخر تغضن وجهه بالرغم من أنه لا يزال شابا. يبدو أننا في خضم الحياة ننسى الأصوات. ومع ذلك فلا يزال يسمع جرس صوته، رنة معدنية، نبرة مهمة قياسا بالوقاحات التي تصدر عن شخص شجاع أو متأنق. وبعد ذلك، تنشال، على حين غرة، قهقهة كهل. كان ذلك بجوار البورصة، حوالي الساعة السابعة مساء، عند بوابة المكاتب. كان الموظفون يتدفقون على شكل جماعات ملتصقة، وكانوا بأعداد كبيرة بحيث أنهم قد يجرفونك من على ناصية الشارع وهكذا تجد نفسك في خضم التيار المتدفق. كان هذا الشخص المدعو ميروفي وشخصان أو ثلاثة يغادرون البناية. كان صبي ضخم ذو سحنة بيضاء لا يفارق ميروفي وكان يتسقط دوما كل كلمة يتفوه بها بينما تشي تقاسيمه

Twitter: @ketab_n

بالدهشة والإعجاب في نفس الآن. بينما كان هنالك أيضا صبي أشقر تبرز عظام وجنتيه ويضع نظارات ملونة ويحمل خاتما وكان غالبا ما يلزم الصمت. أما أكبرهم سنا فكان في حوالي الثلاثين من عمره. وكما يذكر بوسمان، فقد كانت معالم وجهه أكثر وضوحا قياسا بمعالم وجه ميروفي: وجه منتفخ، أنف قصير يعطي لوجهه سيماء شخص عنيف وكان يصُف شعره الأسمر إلى الوراء. متجهم أبدا ويبدو أكثر سلطوية. كان بوسمان يعتقد بأنه قد يكون رئيس مكتبهم. كان يخاطبهم بصرامة كما لو كان مكلفا بتربيتهم وكانوا يصغون له كتلاميذ مطيعين. نادرا ما كان ميروفي يسمح لنفسه بإبداء ملاحظة وقحة. بالنسبة للأعضاء الآخرين للمجموعة فبوسمان لا يذكر أي شيء عنهم. إنهم مجرد ظلال. كان التضايق الذي يسببه له هذا اللقب، ميروفي، يطفو من جديد كلما استرجع كلمتين اثنتين: «العصابة السعيدة.»

ذات مساء، بينما كان بوسمان ينتظر كما العادة مارغريت لو كوز أمام المبنى، خرج أولا ميروفي ورئيس المكتب والفتى الأشقر الذي يضع نظارات ملونة وتوجهوا رأسا نحوه. طلب منه رئيس المكتب فجأة:

«تريد أن تنضم إلى «العصابة السعيدة،» أليس كذلك؟»

وانطلق ميروفي في قهقهة العجوز التي تميزه. حار بوسمان في الرد. العصابة السعيدة؟ أما الآخر، صاحب الوجه الصارم أبدا والنظرة الحادة فقد قال له: « العصابة السعيدة، إنها نحن.» وقد بدا هذا لبوسمان في الواقع مثيرا للسخرية بسبب نبرته الكئيبة.

Twitter: @ketab_n

لكن ونظرا لمظهرهم ذلك المساء، فقد بدا له الثلاثة كما لو أنهم يحملون عصيا غليظة بأيديهم على طول الشوارع، وكانوا بين الفينة والفينة، ينهالون بها ضربا على أحد المارة على حين غرة. وكل مرة كانت تتناهى إلى السمع قهقهة ميروفي الهزيلة. أخبرهم:

«بخصوص العصابة السعيدة...دعوني أفكر.»

ارتسمت الخيبة على وجوه الآخرين. في الواقع، فهو بالكاد يعرفهم. لا يذكر أنه كان وحيدا معهم سوى خمس أو ست مرات. فقد كانوا يعملون في المكتب ذاته الذي تشتغل به مارغريت لو كوز وقد كانت هي التي عرفته عليهم. كان الفتى الأسمر صاحب الوجه الذي يشبه وجوه الكلاب الشرسة رئيسها وكان لزاما أن تكون ودودة معه. ذات يوم سبت زوالا، التقى على شارع كابوسين بميروفي ورئيس المكتب والفتى الأشقر صاحب النظارات الملونة. كانوا قد غادروا قاعة الرياضة. كان ميروفي قد أصر على أن يرافقهم لتناول «كأس وقطعة حلوى.» هكذا وجد نفسه في الجهة الأخرى من الشارع يجلس إلى طاولة في قاعة للشاي تدعى لا ماركيز دو سيفينيي. كان ميروفي يبدو سعيدا لأنه استدرجهم إلى هذه المؤسسة. نادى على إحدى النادلات، وكواحد من رواد المكان، طلب بصوت قاطع: «الشاي وبعض قطع الحلوى.» كانا الآخران يعاملانه بشيء من التسامح، وقد أثار هذا استغراب بوسمان بخصوص رئيس المكتب الذي كان صارما كما العادة.

« هل فكرت بشأن عصابتنا السعيدة...هل اتخذت قرارا؟»

كان ميروفي قد وضع السؤال على بوسمان على نحو حاد

Twitter: @ketab_n

وقد كان الأخير يحاول أن ينتحل أي عذر لمغادرة الطاولة. أن يخبرهم، مثلا، بأنه يريد أن يذهب ليجري اتصالا هاتفيا. سيعكر هذا سماء صفوهم. لكنه كان يفكر في مارغريت لو كوز التي كانت زميلتهم في العمل. قد يلتقي بهم مجددا، كل مساء، كلما ذهب لانتظارها.

«إذن هل ترغب في الانضمام إلى عصابتنا السعيدة؟»

كان ميروفي يلح في السؤال، وقد تزايدت نبرته العدائية، كما لو كان يرغب في استفزاز بوسمان. كان الأمر يبدو كما لو أن الآخران يتهيآن لمتابعة مقابلة في رياضة الملاكمة، الأسمر الذي يشبه وجهه وجوه الكلاب الشرسة وقد علت محياه ابتسامة خفيفة، والأشقر الذي بدا وجهه صفحة بيضاء يصعب اختراقها نظرا لنظاراته الملونة.

هكذا أعلن بوسمان بصوت هادئ: «كما تعلمون فمنذ أيام المدرسة الداخلية والثكنة لم أعد أحب تماما العصابات.»

أربكت هذه الإجابة ميروفي، فندت عنه كدأبه دائما قهقهة عجوز. بعد ذلك انتقلوا إلى مواضيع أخرى. هكذا أوضح رئيس المكتب بصوت جدي بأنهم يترددون مرتين في الأسبوع على قاعة للرياضة وبأنهم يمارسون أنواعا كثيرة من الرياضة، من بينها رياضة الملاكمة الفرنسية والجيدو. كما توجد أيضا قاعة للأسلحة يشرف عليها معلم رياضة المسايفة. وخلال أيام السبت فإنهم يمارسون العدو بغابة فانسين.

«يجب أن تلتحق بنا لممارسة الرياضة...»

Twitter: @ketab_n

شعر بوسمان بأنه يوجه له أمرا.

«أنا على يقين بأنك لا تمارس ما يكفي من الرياضة...»

كان يحدق فيه مباشرة وقد وجد بوسمان صعوبة في النظر إليه هو الآخر.

«ماذا قلت، هل ستلتحق بنا لممارسة الرياضة؟»

أضاءت وجهه الضخم الذي يشبه وجوه الكلاب الشرسة ابتسامة.

«هل توافق أن تلتحق بنا خلال يوم من أيام الأسبوع القادم؟ هل أضع اسمك بزقاق كومارتان؟»

هذه المرة، لم يدر بوسمان كيف يرد على سؤاله. بالطبع، ذكره هذا الإلحاح بأيام المدرسة الداخلية والثكنة.

وبصوت حاد سأل ميروفي: «منذ قليل أخبرتني بأنك لا تحب العصابات، أليس كذلك؟» ثم تابع: «لا شك أنك تفضل رفقة الآنسة لو كوز، أليس كذلك؟»

شعر الاثنان الآخران بالضيق من هذه الملاحظة. حافظ ميروفي على ابتسامته، لكنه مع ذلك كان يخشى من ردة فعل بوسمان.

غير أن الأخير أجاب بهدوء: «بالطبع نعم، هذا صحيح. دون شك أنت على حق.»

تركهم على ناصية الشارع. كانا يبتعدان وسط الجمع، رئيس المكتب والفتى الأشقر صاحب النظارات يسيران جنبا إلى جنب. كان ميروفي يسير وراءهما قليلا ثم التفت مودعا. ماذا لو كانت

Twitter: @ketab_n

ذاكرته تخدعه؟ ربما حدث ذلك في مساء آخر، على الساعة السابعة مساء أمام مبنى الإدارة، حينما كان ينتظر خروج مارغريت لو كوز.

بعد مرور بضع سنوات على ذلك، حوالي الساعة الثانية صباحا، كان يقطع ملتقى الطرق الذي يربط شارع الكوليزي وشارع فرانكلين روزفيلت على متن سيارة أجرة. توقف السائق عند إشارة المرور الحمراء. مباشرة أمامه، على حافة قارعة الطريق، تسمر شخص في مكانه بحيث لا يبدي حراكا، وكان يرتدي جاكيتة سوداء وكانت قدماه تبدوان عارية في صنادل. تعرف بوسمان على ميروفي. كان الوجه ضامرا، وشعر الرأس مقطوعا. كان يقف هناك، كما لو كان يحرس المكان، ومع مرور السيارات النادرة، كان كل مرة يبتسم. أو بالأحرى يكشر عن أسنانه. كان يبدو كما لو أنه مومس تعرض خدماتها على زبائن من العالم الآخر.كان ذلك خلال ليلة من ليالي كانون الثاني شديدة البرودة. لشد ما رغب بوسمان في الالتحاق به والحديث إليه، لكنه فكر بأن الآخر لن يتعرف إليه. كان لا يزال ينظر إليه، عبر الزجاج الخلفي للسيارة وحتى انعطاف السيارة عند ملتقى الطرق. لم يستطع أن يكف عن النظر إلى هذه الهيئة المتجمدة هناك، في الجاكتة السوداء، وتذكر فجأة ذلك الفتى الضخم ذا السحنة البيضاء الذي كان غالبا يرافق ميروفي وكان يبدو معجبا به كثيرا. ترى ما الذي حل به؟

كانت هناك العشرات ثم العشرات من هذه الأشباح. يستحيل إيعاز اسم للأغلبية العظمى منها. هكذا، كان يكتفي بتدوين إشارة

Twitter: @ketab_n

غامضة في مذكرته. الفتاة السمراء التي تحمل آثار جرح والتي كانت توجد دوما في الوقت ذاته على الخط الذي يربط بين بورت دو رلينز وبورت دو كلينيانكور...في الغالب الأعم، يكون ذلك شارعا، أو محطة قطار الأنفاق، أو مقهى يعمل على انبعاثهم من أعماق الماضي. يذكر الفتاة التي تقطعت بها أسباب الحياة والتي ترتدي رداءا، والتي يوحي مظهرها بأنها إحدى عارضات الأزياء، وقد التقى بها مرات عديدة في أماكن مختلفة: شارع شيرش ميدي، شارع ألبوني، شارع كورفيسار...

استغرب بوسمان أن يتمكن في مدينة كبيرة مثل باريس حيث يوجد الملايين من السكان أن يقع على الشخص ذاته، في مناسبات بعيدة، وكل مرة في مكان يبعد كثيرا عن المكان الأول. استشار صديقا كان يقوم بوضع نسبة احتمالات الربح والخسارة وذلك بمراجعة أعداد صحيفة باري تورف خلال العشرين سنة الأخيرة للمشاركة في المسابقات. لا، لا يوجد جواب على ذلك. هكذا فكر بوسمان بأن القدر يلح أحيانا. قد تصادفُ الشخص ذاته لمرتين أو ثلاث. وإذا لم تبادره بالحديث، فأنت الخاسر.

العامل الاجتماعي للمكاتب؟ شيء من قبيل «ريشوليو أنتيريم.» نعم، لنقل: ريشوليو أنتيريم. مبنى ضخم، كان في السابق مقر صحيفة. مقهى في الطابق الأرضي حيث كان يلتحق مرتين أو ثلاث مرات بمارغريت لو كوز ذلك أن شتاء تلك السنة كان صعبا. لكنه كان يفضل انتظارها في الخارج.

في المرة الأولى، كان قد صعد السلالم للبحث عنها. ثمة

Twitter: @ketab_n

مصعد ضخم من الخشب الشفاف. أخذ السلالم. في كل طابق، عند الأبواب المزدوجة، توجد صفيحة تحمل اسم شركة ما. قرع جرس تلك التي تحمل اسم ريشوليو أنتيريم. انفتح الباب تلقائيا. وسط القاعة، في الجهة الأخرى من العازل الذي يعلوه الزجاج، كانت مارغريت لو كوز تجلس إلى أحد المكاتب، شأنها شأن الأشخاص الآخرين الذين يحيطون بها. نقر الزجاج، فهزت رأسها وألمحت له بإشارة كي ينتظرها في الأسفل.

كان دائما يقبع في الخلف، على طرف ناصية الشارع حتى لا يجرفه سيل الذين يخرجون من البناية في نفس الساعة بينما تنطلق صفارة مدوية. خلال الأيام الأولى، كان يخشى أن يفقدها وسط هذا الزحام، وهكذا اقترح أن ترتدي لباسا يستطيع بواسطته أن يميزها: معطف أحمر مثلا. كان يخامره الإحساس كما لم أنه يترقب وصول شخص ما بمحطة القطار، شخص تحاول التعرف عليه ضمن المسافرين الذين يمرون أمامك. يتناقص عددهم شيئا فشيئا. المسافرون الذين تأخروا في الهبوط من القطار، هناك، ينزلون المقطورة الأخيرة، ومع ذلك لا تفقد الأمل بعد...

لمدة أسبوعين كانت مارغريت تشتغل في ملحقة تابعة لروشوليو أنتيريم، على مسافة لا تبعد كثيرا عن ساحة نوتر دام دي فيكتوار. كان ينتظرها هنا أيضا عند زاوية شارع رادزيويل على الساعة السابعة مساء. كانت وحيدة حينما غادرت المبنى الأول على اليمين، وهكذا وهو يراها تخطو نحوه، بدا له أنها لن تتعرض للتيه وسط هذا الجمع ـ خشية كانت تراوده أحيانا، منذ لقائهما الأول.

Twitter: @ketab_n

ذلك المساء، على ساحة الأوبيرا، تجمع متظاهرون أمام طابور من قوات محاربة الشغب كانوا يشكلون حاجزا على طول الشارع، على ما يبدو لحماية مرور موكب رسمي. تمكن بوسمان أن ينفلت عبر هذا الحشد حتى مخرج محطة قطار الأنفاق، قبل هجوم قوات الأمن. لم يكد ينزل بعض السلالم حتى ارتد بعض المتظاهرين الذين يوجدون خلفه إلى الوراء دافعين إلى الأمام الأشخاص الذين يوجدون أمامهم على السلالم. فقد توازنه وهكذا دفع هو الآخر فتاة كانت ترتدي جاكتة شتوية كانت توجد أمامه، وهكذا وجد الاثنان نفسيهما تحت رحمة الآخرين، مضغوطان إلى الجدار. كانت تتناهى صفارات سيارات الشرطة. حينما كادا يختنقان، تلاشى الضغط. تواصل حشد المسافرين في الاندفاع على طول السلالم. ساعة الذروة. صعدا معا ... لاحقا، أصيبت بجرح خلال ارتطامها بالجدار وكان حاجبها ينزف. بعد محطتين، هبطا القطار وهكذا رافقها إلى صيدلية. كانا يسيران جنبا إلى جنب حينما غادرا الصيدلية. كانت تحمل ضمادة فوق حاجبها كما كانت هناك بقعة دم على ياقة جاكتتها الشتوية. شارع هادئ. كانا المارين الوحيدين. الشارع الأزرق. بدا هذا الاسم لبوسمان اسما عبثيا. كان يتساءل إذا لم يكن في حلم. بعد مرور سنوات على ذلك، وجد نفسه صدفة في نفس الشارع الأزرق، وشدته فكرة إلى المكان: هل يمكن فعلا أن تذهب الكلمات التي تبادلها شخصان خلال لقائهما الأول أدراج الرياح، كما لو أنها لم تلفظ قط؟ وهذه الهمسات، هذه الأحاديث الهاتفية منذ مئات السنين؟ هذه الآلاف

Twitter: @ketab_n

مـن الكلمـات التـي يهمـس بهـا في الأذن؟ هـل ضاعت كل هذه العبارات المضيئة التافهة بحيث سيكون مصيرها النسيان؟

«مارغريت لو كوز. لو كوز في كلمتين.

ـ هل تقيمين في الجوار؟

ـ لا، بالقرب من شارع أوتوي.

مـاذا لـو أن هـذه الكلمـات بقيت عالقة فـي الفضاء إلى نهاية الزمـن وأنـه كان يكفـي فقـط القليل مـن الهدوء والانتبـاه لالتقاط أصدائها؟

ـ إذن أنت تعملين في الحي؟

ـ نعم. في إدارة. وأنت؟

تفاجـأ بوسـمان لنبـرة صوتهـا الهادئة، هذه الطريقة المسـالمة والبطيئـة فـي المشـي، هذا الهدوء الظاهـري الذي يناقض الضمادة التي توجد فوق حاجبها وبقعة الدم على الواقية.

ـ آه أنا... أنا أعمل في مكتبة...

ـ لابد أن ذلك مهم...

كانت نبرة صوتها مهذبة ومحايدة.

ـ مارغريت لو كوز، اسم بريتوني، أليس كذلك؟

ـ نعم

ـ إذن، لقد ولدت في بريتونيا؟

ـ لا، في برلين.

كانت ترد على الأسـئلة بأدب جم، لكن بوسـمان شـعر بأنها لـن تضيـف أكثـر من ذلك. برلين. بعد مرور أسـبوعين، كان ينتظر

Twitter: @ketab_n

مارغريت لو كوز على قارعة الطريق، على الساعة السابعة مساء. كان ميروفي قد غادر المبنى أولا. كان يرتدي بدلة يوم الأحد، تلك البدل ذات المناكب الضيقة والتي كان يصنعها خياط خلال ذلك التاريخ اسمه رينوما.

«سترافقنا هذا المساء؟» أخبر بوسمان بصوته المعدني. « سنذهب في جولة...علبة ليلية في الشون إيليزي...الفيستيفال...»

نطق بكلمة «فيستيفال» بنبرة ملؤها الخشوع كما لو كان ذلك يتعلق بمكان راق للحياة الليلية الباريسية. هكذا تسمر أمامه:

«يبدو لي أنك تفضل الخروج مع الألمانية الحقيرة.»

كانت لديه قناعة بأن يتحاشى عنف الآخرين، وأن يغض الطرف عن الشتائم والاستفزازات. رد بابتسامة غائبة فحسب. نظرا لحجمه ووزنه، كان النزال، في الغالب، سيكون غير متساو. ومع ذلك فالناس لم يكونوا بهذا السوء.

خلال ذلك المساء الأول، واصلا السير معا، هو ومارغريت لو كوز. وصلا إلى شارع ترودين، شارع يقال بشأنه بأنه لا يبدأ أو ينتهي في أي مكان ذلك أنه يشكل نوعا من المنعزلات أو الأماكن المعزولة حيث نادرا ما تمر السيارات. جلسا على مقعد.

ـ بأي عمل تقومين في الإدارة؟

ـ أنا كاتبة. كما أنني أترجم المراسلات إلى الألمانية.

ـ آه نعم، بالطبع... فأنت من مواليد برلين...

كان يرغب في معرفة سبب ولادة هذه الفتاة البريتونية في برلين، لكنها بقيت صامتة. نظرت إلى ساعتها اليدوية.

Twitter: @ketab_n

ـ أنتظر نهاية فترة الذروة حتى آخذ قطار الأنفاق من جديد...

هكذا بقيا ينتظران، في مقهى، قبالة مدرسة رولان الثانوية. كان بوسمان، لمدة سنتين أو ثلاث، يقيم في الداخلية لهذه المدرسة الثانوية، كما في العديد من أماكن الإقامة الداخلية في باريس والضواحي. خلال الليل، كان يغادر مكان النوم خلسة ويسير على طول الشارع الصامت حتى أنوار شارع بيغال.

ـ هل تلقيت أي تعليم؟

أنظرا لوجود مدرسة رولان الثانوية في الجوار طرحت السؤال؟

ـ لا، لم أفعل.

ـ ولا أنا.

يا لها من مصادفة غريبة أن يجلس قبالتها، في هذا المقهى الذي يقع على شارع ترودين... على بعد مسافة قليلة، على نفس القارعة، توجد «المدرسة التجارية.» كان قد أقنعه زميل له من زملاء ثانوية رولان نسي الآن اسمه، صبي أسمر ووجنتاه ناتئتان، والذي كان يرتدي على الدوام ملابس ما بعد التزلج، أن يلتحق بهذه «المدرسة التجارية.» قام بوسمان بذلك خصوصا ليطيل من عمر تسريحه من الخدمة العسكرية، لكنه لم يبق هناك سوى أسبوعان.

«أتعتقد بأنه علي أن أبقي هذه الضمادة؟»

حكت بأصبعها حاجبها والضمادة التي تعلوه. كان بوسمان يرى بأن تحتفظ بالضمادة حتى الغد. سألها إذا ما كانت تشعر بالألم. هزت منكبيها.

Twitter: @ketab_n

ـ لا، ليس كثيرا... حينها اعتقدت بأنني سأختنق...

هذا الحشد، عند مخرج محطة قطار الأنفاق، هذه القطارات المزدحمة، كل يوم، في نفس الساعة... كان بوسمان قد قرأ في مكان ما بأن اللقاء الأول بين شخصين هو بمثابة جرح خفيف يشعر به كل طرف ويستثيره من وحدته وخموله. لاحقا، حينما يستعيد لقاءه بمارغريت لو كوز، كان يبوح لنفسه بأنه ما كان ليحدث غير ذلك: هنا، عند بوابة محطة قطار الأنفاق هذه، بينما يوجدُ أحدهما لصق الآخر. أما القول بأنه في مساء آخر، في المكان ذاته، أنهما سينزلان السلالم ذاتها، خلال الحشد ذاته وأنهما سيركبان المقطورة ذاتها دون أن يرى الواحد منهما الآخر...و لكن هل حدث الأمر فعلا؟

«لكنني مع ذلك أرغب في انتزاع الضمادة...»

حاولت أن تنزع طرف الضمادة، بين الإبهام والسبابة، لكنها لم تتمكن من ذلك. اقترب منها بوسمان.

«انتظري...سأساعدك...»

سحب الضمادة بلطف، شيئا فشيئا. كان وجه مارغريت لو كوز قريبا جدا من وجهه. حاولت أن تبتسم. أخيرا، تمكن من نزعها تماما، بسرعة. ثمة علامة ورم دموي فوق الحاجب.

كان قد ترك يده اليسرى فوق كتفها. كانت تحدق فيه بعينين تنطقان صفاء.

«غدا صباحا، سيظنون في المكتب بأنني تشاجرت مع شخص ما...»

Twitter: @ketab_n

سأل بوسمان إذا ما كان بإمكانها أن تأخذ إجازة لبعض الأيام بعد هذا «الحادث.» ابتسمت له، على ما يبدو لسذاجته. في مكاتب ريشوليو أنتيريم يفقد المرء وظيفته لمجرد أي غياب.

سارا حتى ساحة بيغال، في نفس الطريق الذي كان بوسمان يسلكه كلما هم بالفرار من داخلية رولان. أمام مخرج محطة قطار الأنفاق اقترح أن يرافقها إلى منزلها. ألا تتألم كثيرا بسبب جرحها؟ لا. على أي حال، في هذه الساعة، تكون السلالم والممرات والمقطورات فارغة وبالتالي فلن تتعرض لأي أذى.

«بإمكانك أن تنتظرني متى شئت على الساعة السابعة مساء عند مخرج المكاتب.» أخبرته بصوتها الهادئ، كما لو أن الأمور منذ الآن باتت من المسلمات. ثم تابعت: «بشارع 25 للرابع من أيلول.»

لم يكن أي واحد منهما يملك قلما أو ورقة لكتابة هذا العنوان، لكن بوسمان طمأنها بأنه لا ينسى أبدا أسماء الشوارع وأرقام البنايات. كانت هذه طريقته الخاصة لصد زحف اللامبالاة وحيادية المدن الكبرى، وربما أيضا لا يقينيات الحياة.

تابع النظر إليها وهي تنزل السلالم. ماذا لو انتظرها دون جدوى، عند مخرج المكاتب. انتابته خشية حينما فكر بأنه قد لا يلتقي بها أبدا. حاول عبثا أن يتذكر في أي كتاب كان قد قرأ بأن كل لقاء أول هو بمثابة جرح. لابد أنه كان قد طالع ذلك خلال أيام مدرسة رولان الثانوية.

Twitter: @ketab_n

خلال المساء الأول الذي جاء فيه بوسمان لانتظارها عند مخرج الإدارة، لوحت له بساعدها وسط الحشد الذي كان يعبر أسفل الرواق. كان يرافقها الآخرون: ميروفي، والشخص الأسمر الذي يشبه وجهه تلك الكلاب الشرسة والشخص الأشقر الذي يضع نظارات ملونة. قدمتهم له وهي تقول: «زملائي.»

اقترح عليهم ميروفي أن يتناولوا كأسا، في مكان يبعد قليلا، في فيرمامون، وقد تفاجأ بوسمان بسبب صوته المعدني. اختلست مارغريت لو كوز نظرة إلى بوسمان قبل أن تلتفت نحو ميروفي. ثم قالت له:

«لا يمكنني أن أبقى كثيرا...علي أ ن أعود إلى المنزل هذه الليلة قبل الموعد المعتاد.

ـ هكذا إذن؟

وحدق فيها ميروفي بوقاحة. تسمر أمام بوسمان وانطلقت قهقهته التي تشبه قهقهة الحشرات.

ـ أظن أنك تسعى لاختطاف الآنسة لو كوز من بين أيدينا، أليس كذلك؟

رد بوسمان بنبرة مجردة:

ـ ماذا...أ تظن ذلك؟

في المقهى، جلس بجانبها، وكان الاثنان معا يقابلان الثلاثة

Twitter: @ketab_n

الآخرين. كان الشخص الأسمر الذي يشبه وجهه وجوه الكلاب الشرسة في مزاج سيئ. مال نحو مارغريت وقال لها:

ـ ستنتهين من ترجمة التقرير قريبا، أليس كذلك؟

ـ غدا مساء، سيدي.

نادت عليه بسيدي لأنه كان أكبرهم سنا. نعم، لقد كان في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره.

«لسنا هنا لنتحدث في أمور العمل،» نبر ميروفي بعصبية وهو يحدق في الشخص الأسمر الذي يشبه وجهه وجوه الكلاب وقد علت محياه تقاسيم تلميذ غير مهذب ينتظر أن تنهال عليه صفعة المعلم.

أطرق كما لو أنه كان معتادا على ملاحظات من هذا القبيل وأنه يبدي نوعا من التفهم نحو هذا الشاب.

ـ ألست أنت من تشاجر مع زميلتنا؟

سأل ميروفي على حين غرة بوسمان وهو يشير إلى حاجب مارغريت لو كوز.

لم يشِ وجه الأخيرة بأية ردة فعل. تظاهر بوسمان بأنه لم يسمع السؤال. ران الصمت. لم يأت النادل بعد إلى طاولتهم.

سأل الشخص الأشقر ذو النظارات الملونة: «ماذا تريدون أن تشربوا؟»

أجاب ميروفي بنبرة حادة: «أطلب خمسة كؤوس من البيرة.»

وقف الشخص الأشقر وسار نحو المنضدة ليضع طلباتهم. تبادلت مارغريت النظر مع بوسمان، وقد كان لديه الإحساس

Twitter: @ketab_n

بأنها كانت نظرة تواطؤ. بحث عن أي شيء يتلفظ به ليكسر جدار الصمت.

«إذن، أنتم تشتغلون في نفس المكتب؟»

ما أن تلفظ بهذه الجملة حتى بدت له تافهة. تعهد بأن لا يقوم منذ الآن بمحاولة الحديث. أبدا.

أجاب ميروفي: «ليس في نفس المكتب.» ثم تابع: «السيد له مكتبه الخاص.»

وكان يشير إلى الشخص الأسمر الذي يشبه وجهه وجوه الكلاب والذي لم تلن تقاسيم وجهه الصارمة. مرة أخرى، الصمت. لم تلمس مارغريت لو كوز كأسها. كما أن بوسمان هو الآخر لم يبد أي رغبة في شرب البيرة في هذه الساعة.

«وأنت ما هو عملك؟»

كان الذي طرح عليه السؤال هو الشخص الأسمر الذي يشبه رأسه رؤوس الكلاب الشرسة وهو يبتسم له ابتسامة غريبة تناقض المدة التي استغرقها في النظر إليه.

منذ تلك اللحظة، تماوجت وجوههم وتداخلت أصواتهم في ليل الأزمنة ـ باستثناء وجه مارغريت ـ كانت الأسطوانة قد تعطلت قبل أن تتوقف فجأة. على أي، كان قد حان موعد إغلاق المقهى الذي بقي بوسمان يجهل سر تسميته بفيرمامون.

سارا حتى محطة قطار الأنفاق. خلال هذا المساء أخبرته مارغريت لو كوز عن رغبتها في تغيير عملها ومغادرة نهائيا ريشوليو أنتيريم وزملائها الذين كانوا رفقتهم قبل قليل. كانت

Twitter: @ketab_n

تطالع كل يوم الإعلانات الصغيرة وكانت تأمل أن تجد جملة ستفتح لها آفاقا أخرى. ساحة الأوبيرا، يلج محطة قطار الأنفاق أشخاص قليلون. مرت ساعة الذروة. اختفت حواجز الأجهزة الأمنية حول الأرضية وعلى طول شارع دي كابوسين، لكن أمام الأوبيرا ينتصب شخصان أو ثلاثة إلى جانب سياراتهم الضخمة المعدة للإيجار، في انتظار زبون لن يأتي.

خلال هبوط السلالم، أمسكها بوسمان من كتفها كما لو كان يرغب في حمايتها من دفعة قد تكون في عنف دفعة المساء السابق، لكنهما كان يسلكان ممرات مقفرة وكانا بمفردهما في المنصة في انتظار القطار. تذكر مسافة طويلة كان قد قطعها على متن قطار الأنفاق والتي انتهت به في غرفة مارغريت لو كوز في أوتوي.

كان يرغب في معرفة سبب اختيارها استئجار غرفة في هذا الحي النائي.

«ذلك أكثر أمانا،» أخبرته. ثم استطردت بعد هنيهات: «ذلك أكثر هدوءا...»

التقط بوسمان في نظرتها خشية، كما لو كانت عرضة لخطر ما. وذات مساء، بعد أن التقيا، بعد انتهاء عملها، بحانة جاك الجزائري بالقرب من مكان إقامتها، سألها إذا ما كانت تعرف أشخاصا آخرين في باريس، خارج دائرة زملائها في العمل. انتابتها لحظة تردد:

«لا...لا أحد...باستثنائك أنت...»

Twitter: @ketab_n

لـم تقـم فـي باريس إلا منذ السـنة الماضية. قبل ذلك، كانت تسكن في الضاحية وفي سويسرا.

تذكر بوسمان المسافات اللانهائية رفقة مارغريت لو كوز على متـن قطـار الأنفـاق، خلال سـاعات الذروة. ومنـذ أن أخذ بتدوين ملاحظاته في دفتره الأسود، كان يراوده حلمان أو ثلاثة حيث يراها وسط الزحام، عند مغادرتها للمكاتب. وكان هنالك حلم آخر حيث يتم شدهما إلى الجدار بسبب ضغط أولائك الذين يتم دفعهم على السـلالم خلفهـم. اسـتفاق مـن نومه على عجل. خطـرت له فكرة دونها في مذكرته في الغداة: «خلال ذلك الزمان، الإحساس بالتيه رفقة مارغريت وسط الزحام.» عثر على دفترين أخضرين من نوع كليـر لا فونتيـن تفيض صفحاتهمـا بكتابة صغيرة، ضيقة تمكن في الأخير من التعرف عليها: إنها كتابته. كتاب كان يحاول كتابته خلال السـنة التي التقى فيها مارغريت لو كوز، رواية من نوع ما. وبينما كان يتصفـح الدفاتـر، اندهـش لحجم الكتابة الضئيلة قياسـا بكتابته العادية. وقد لاحظ أنها على نحو خاص تحتل الحواشي وأنه كان يكتب دون أن يلجأ بتاتا إلى السطور أو إلى صدر الصفحات، وبأنه لا توجد في هذه المسودة أية مساحات بيضاء. لقد كان ذلك يقينا طريقته الخاصة في التعبير عن الشعور بالاختناق.

بيـن الحيـن والحيـن كان يكتـب خـلال الـزوال فـي غرفـة مارغريـت لـو كـوز، حيث كان يسـتجير بغيابها. تطـل النافذة التي توجد في العلية على حديقة مهجورة تنتصب في وسـطها شـجرة الزان الأرجوانية. خلال ذلك الشـتاء، كانت طبقة من الثلج تغطي

Twitter: @ketab_n

الحديقة، لكن قبل الموعد الذي يشير إليه التقويم الذي يحدد حلول فصل الربيع. اعترشت أوراق الشجرة حتى بلغت تقريبا زجاج النافذة. لذا، لماذا كانت الكتابة على صفحات الدفاتر، في هذه الغرفة الهادئة، بعيدا عن ضوضاء العالم، تحتشد على هذا النحو؟ لماذا كان كل الذي كتبه أسودا وخانقا؟ ها هنا أسئلة لم يطرحها قط خلال تلك الأثناء؟

خلال أيام السبت والأحد يشعر المرء، في هذا الحي، بنأيه عن كل شيء. منذ اليوم الأول الذي ذهب فيه لانتظار مغادرتها للمكاتب ووجدا أنفسهما برفقة ميروفي والآخرين، أخبرته بأنها تفضل البقاء هناك، خلال أيام الإجازة. هل يعلم زملاؤها بعنوانها؟ بالطبع لا. حينما رغبوا في معرفة مكان إقامتها، أخبرتهم عن مأوى للطالبات. خارج ساعات العمل، فهي لا تتردد عليهم. ذات يوم سبت حينما كانا معا في أوتوي بحانة الجزائري، حول طاولة توجد بالداخل، أمام الزجاج اللامع، سألها:

«إذا كنت أفهمك جيدا، فأنت تختبئين وتقيمين هنا تحت اسم مستعار...»

ندت عنها ابتسامة، لكنها ابتسامة تنم عن ضيق. على ما يبدو، فهي لم تكن تحب هذا النوع من المزاح. خلال طريق العودة، في زاوية شارع دي بيرشون، توقفت، كما لو قررت أن تعترف له بسر ما. أو هل كانت تخشى أن يكون هناك شخص ما ينتظرها هناك، أمام مدخل مرآب البناية؟

ـ هناك شخص ما يبحث عني منذ شهور...

Twitter: @ketab_n

سألها بوسمان من يكون هذا الشخص. هزت منكبيها. ربما ندمت على كشفها لهذا السر.

ـ شخص كنت قد عرفته...

ـ وأنت تخشينه، أليس كذلك؟

ـ نعم.

الآن، تبدو مرتاحة. بقيت متسمرة في مكانها وتحدق في بوسمان بعينيها الناصعتين.

ـ هل يعرف عنوانك؟

ـ لا.

كما أن هذا الشخص لا يعرف مكان عملها. حاول بوسمان طمأنتها. باريس مدينة كبيرة. من المحال العثور على أي شخص في خضم ساعات الذروة. لا شيء يميزهما عن باقي الحشد. لقد كانا مجرد نَكِرات. كيف يمكن التعرف على شخص مثل مارغريت لو كوز أو جون بوسمان؟ أمسكها من كتفها وسارا على طول شارع دي بيرشون. كان المساء قد حل وقد كانا يحرصان على ألا ينزلقا على صفائح الثلج المجمدة. الهدوء يحيط بهما. سمع بوسمان صوت جرس كنيسة. كان يعد الضربات بصوت عال وهو يشدها بقوة نحوه. الحادية عشر مساء. في هذه الساعة، وحدها حانة الجزائري، شارع بوسان، تبقى مفتوحة في هذا الحي. شعر بوسمان بأنه يوجد على مسافة بعيدة عن باريس.

ـ لا يوجد ما يجعل .شخصا ما يعثر عليك هنا.

ـ أتعتقد ذلك؟

Twitter: @ketab_n

كانت تنظر أمامها، وقد بدت على سيماء وجهها الخشية، حينما شارفا مدخل البناية. لا أحد. خلال مساءات أخرى، لم تكن تعير بالا للأمر. وخلال أيام أخرى، كانت تطلب منه أن يأتي دون تلكأ لينتظرها عند مخرج العمل. كانت تتوجس خيفة أن يكون «الشخص» قد عثر على أثر لها. كان بوسمان يرغب في معرفة المزيد، لكنها كانت كثومة في الإفضاء له بالتفاصيل. وخلال لحظات اللامبالاة، كان يأمل في أن تتمكن أخيرا من نسيان كل شيء.

مساء ذات سبت، غادرا قاعة سينما أوتوي. أخبرته بأنها تظن بأن رجلا يتعقبهما. استدار، لكنها أمسكت بذراعه وجعلته يسرع الخطو. في الواقع، كان هنالك رجل يسير على بعد عشرين مترا وراءهما، هيئة لشخص متوسط القامة يتردي معطفا من الصوف.

«هل ننتظره؟» سأل بوسمان بنبرة جذلى.

أمسكت به بقوة وجرته إلى الأمام. لكنه لم يبرح مكانه. اقترب الشخص الآخر. مر أمامهما دون أن يعيرهما بالا. لا، لحسن الحظ، لم يكن الشخص الذي كانت تعتقد أنه هو.

عند العودة إلى الغرفة بشارع دي بيرشان، قال لها، على شكل دعابة:

«إذن، هذا الشخص...أريد مع ذلك أن أعرف كيف يبدو... للتعرف عليه في الشارع...»

شخص أسمر، في الثلاثين من عمره، ضخم إلى حد ما،

Twitter: @ketab_n

وجهه ضامر. على العموم، بقيت مارغريت غامضة وهي تصور له هيئته. لكنه واصل مع ذلك طرح المزيد من الأسئلة. لا، لا يقيم هذا الرجل في باريس. كانت قد تعرفت عليه في الضاحية أو في سويسرا، لم تعد تذكر الأمر جيدا. لقاء سيء. ماذا كان عمله؟ لا تعرف جيدا، نوع من الوكلاء التجاريين، كثير التنقل بين فنادق الضاحية، وبين الحين والحين يأتي إلى باريس. غدت تتهرب أكثر فأكثر، وقد خمن بوسمان بأنها كي تتغلب على خوفها غلفت هذا الشخص في ضباب، وأقامت بينها وبينه نوعا من الزجاج الخشن.

خلال هذا المساء، في الغرفة، أخبرته بأن الأمر ليس مهما. كل ما هنالك هو أنه يجب تجاهل هذا الشخص، وإذا ما قدم نفسه يوما ما، فيجب تجاوزه دون حتى النظر إليه. على أي، فليست الوحيدة التي ترغب في تحاشي شخص ما. وهو كذلك، لا يمكنه أن يقطع بعض أحياء باريس دون أن يشعر بالضيق.

«إذن، أنت الآخر... تخشى لقاء شخص ما؟

أخبرها بوسمان: «تصوري امرأة ورجلا في العقد الخامس من عمرهما. امرأة ذات شعر أحمر ونظرة حادة ورجل أسمر يبدو بمظهر رجل دين سابق. المرأة ذات الشعر الأحمر هي أمي، إذا ما صدقت سجلات الحالة المدنية.» خلال هذه الفترة من شبابه، كلما التقى بوسمان لسوء الحظ هذان الشخصان وقد خاطر بسلك شارع السين أو شوارع الضاحية، فإن الأمر ذاته يتكرر مرة ومرة: تسير أمه باتجاهه، وقد اتخذ ذقنها شكلا عدائيا، وتطلب منه المال، بنبرة سلطوية لمن يوبخ طفلا. يبقى الرجل الأسمر جانبا، دون أن يحرك

Twitter: @ketab_n

ساكنا، ويتفرس فيه بصرامة، كما لو يريده أن يعرف بأن وجوده عار. كان بوسمان يجهل سبب هذا الاحتقار الذي يبديانه نحوه. فتش في جيبه وهو يأمل بأن يجد بعض الأوراق النقدية. مد الأوراق إلى أمه فوضعتها في جيبها بسرعة. ابتعد الاثنان، يغلفهما الكثير من التكلف والوقار، الرجل وقد تحدب ظهره كما لو كان مصارع ثيران. بقي بوسمان صفر اليدين دون ما يقتني به تذكرة قطار الأنفاق.

ـ لكن لماذا تعطيهم المال؟

بدت فعلا مأخوذة بما أخبرها به بوسمان للتو.

ـ هل هي فعلا أمك؟ أليس لديك عائلة أخرى؟

ـ لا.

نست للحظات ذلك الرجل الذي كانت تتوجس منه خيفة كل مساء أمام الإقامة.

أخبرها بوسمان: «كما ترين فالكل معرض للقاءات سيئة.»

كما أضاف أيضا بأن المرأة والرجل كانا، مرات عديدة، يطرقان باب غرفته في المقاطعة الرابعة عشر ليطلبا منه المال. مرة واحدة، لم يفتح لهما الباب. لكنهما عادا لاحقا. كان الرجل ينتظر في الشارع، دائما في ثيابه السوداء، وهامته العالية. صعدت أمه السلالم وطلبت المال بصوت جاف، كما لو كانت تخاطب مكتريا لم يؤد واجب الإيجار منذ مدة. من النافذة، رآهما يبتعدان على طول الشارع، دائما تجللهما مُسوح التكلف والوقار.

ـ لحسن الحظ أنني غيرت مكان إقامتي. لم يعد بإمكانهما ابتزازي.

Twitter: @ketab_n

ذلك المساء، سألها مرة أخرى. لم تكن لديها أية أخبار بشأن ذلك الشخص منذ أن اشتغلت بريشوليو أنتيريم. غيرت هي الأخرى مكان إقامتها حتى لا يجد لها سبيلا. قبل أن تستقر في هذه الغرفة بأوتوي، كانت قد أقامت في العديد من الفنادق بالقرب من الإيتوال، أحدهما بشارع بريي. وهنا تمكن في الأخير من العثور عليها. هربت من هذا الفندق في عز الليل، دون أن تتمكن حتى من جمع أغراضها.

«إذن لا يوجد ما تخشين منه،» أخبرها بوسمان ثم تابع: «لابد أنه هناك يقوم بالحراسة حتى آخر الزمان.»

انفجرت بالضحك، فاطمأن بوسمان لحالها. ربما قد يكون الاثنان الآخران ينتظران قدومه في مكانه القديم، ليطلبا منه مرة الأخرى المال. تخيلهما على الرصيف، المرأة ذات الشعر الأحمر، بهامتها العالية، على شكل تمثال صغير يوجد في مقدمة سفينة، والرجل المتصلب أبدا في حدبته كما لو كان مصارع ثيران.

«وما اسم هذا الشخص؟» سألها بوسمان. «يمكنك على الأقل أن تخبريني بلقبه.»

ترددت قليلا. نطقت عيناها بالخشية.

ـ بويافال؟

ـ أليس لديه اسم شخصي؟

لم تحر جوابا. مرت أخرى، بدت منشغلة. لم يلح بوسمان.

ذلك المساء، كان الثلج يهمي. يكفي، أخبر مارغريت، بأن يقنع المرء نفسه بأنه يوجد في مكان بعيد جدا عن باريس، في

Twitter: @ketab_n

الجبـل، فـي مـكان ما في إينغادين. بدت هـذه المقاطع رقيقة وهو ينطقها؛ إنها تبعث السكينة وتجعلك تنسى كل اللقاءات السيئة.

بويافال. كان سعيدا لأنه حصل على اسم هذا الشخص الذي يبدو أنه يشغل بال مارغريت كثيرا. ما أن نعرف الاسم حتى يمكننا مجابهـة الخطـر. ارتـأى، دون علـم مـن مارغريـت، أن يقصي هذا البويافال كما سـبق له أن أقصى المرأة ذات الشـعر الأحمر- أمه، على ما يبدو- والرجل الذي يرتدي ثيابا سـوداء والذي كان يتردد في الجزم إذا ما كانت هيئته تشـير إلى هيئة رجل دين أو مصارع ثيران مزيف.

Twitter: @ketab_n

مـع توالـي الأيـام، كان بوسـمان يسـير مرة على طول شـارع السـين. تغيرت ملامح الحي منذ عهده البعيد بالسـيدة ذات الشـعر الأحمر ورجل الدين السابق. ومع ذلك، فقد تراءت له امرأة عالية القوام تتقدم نحوه على الرصيف حيث كان يسير، وهي تحمل في يدهـا عصـا. مـن بعيد تعـرف عليها، وإن لم يكن قد التقى بها منذ ثلاثين سـنة خلت: لقد كانت تلك المرأة، حسـب سـجلات الحالة المدنية، أمه. لم يعد شـعرها أحمرا كما في السـابق، لكن سـطوة الشـيب أحالته صفحة بيضاء. كانت ترتدي سـترة واقية من المطر لونها في لون الزجاج الأخضر ولها تصميم عسـكري، وتنتعل في قدميها حذاء خاصا بالجبال، بينما تدلت إلى الأمام محفظة يشدها حـزام إلـى كتفها. كانت تسـير بخطى واثقـة. يبدو أن العصا كانت زائدة، عصا تبدو بالأحرى مناسبة لتسلق الجبال.

هـي الأخـرى تعرفـت عليـه. توقف بمحـاذاة المقهـى القديم فرايـس وكان يحـدق فـي عينيهـا، دون أن يختلـج بحركـة، كما لو كان يواجـه غورغـون[1]. حدقـت فيه، بذقنها المسـتطيل، بينما تنطق مقلتاهـا بنظـرة تفيـض تحديا. قذفت في وجهه سـيلا من السـباب والشتائم سكبته في لغة خشنة لم يكن يفهم رطانتها. هزت عصاها إلى الأعلى وحاولت أن تهوي بها على رأسه. لكنه كان أطول قامة

(1) ـ وحش خرافي له شعر من الثعابين ونظر يجمد كل من ينظر إليه.(م)

Twitter: @ketab_n

وهكذا اصطدمت العصا بكتفه، مسببة له ألما ممضا.

تراجع إلى الوراء. بيد أن الرأس المدبب للعصا كان قد لمس عنقه. توكأت على العصا الآن، وقد صارت أكثر عدوانية، بينما ذقنها يشي دوما بالغرور، وحدقت فيه بعينيها اللتين بدتا أصغر حجما وأشد قسوة مما كانت عليه في السابق.

تنحى جانبا حتى يسمح لها بالمرور.

«سيدتي...»

لم تحرك ساكنا. وبحركة آمرة، مدت كفها المبسوط تماما. غير أن بوسمان لم يكن يملك المال.

واصل مسيره. وصل إلى رأس ساحة شارع مازرين ثم التفت. هناك، كانت لا تزال متجمدة في مكانها، تنظر إليه بترفع. مرر يده على عنقه ورأى آثار الدم على أطراف أصابعه. لقد كان ذلك بسب العصا التي أحدثت الجرح. رباه، كم يبدو أولائك الذين تسببوا لنا في الأذى في الماضي حقيرين مع مرور الوقت، وكم يصير أيضا أولائك الذين فرضتهم الصدفة أو سوء الطالع خلال مراحل طفولتك أو مراهقتك، وعلى سجلك المدني، مصدر ازدراء. هكذا، ضمن كل هذه الأشياء، لم يتبق سوى تلك الألمانية العجوز التي تتسلق الجبال، بثيابها في لون الزجاج الأخضر، وبمحفظتها وعصاها الجبلية، هناك على الرصيف. انفجر بوسمان ضحكا. قطع جسر الفنون ودلف إلى قصر اللوفر.

كان يلعب هناك، خلال مراحل طفولته، خلال زوالات طويلة. كان مخفر الشرطة، هناك، على اليمين، وسط ساحة كاري الكبيرة،

Twitter: @ketab_n

يثير جزعه، بعملائه أمام المدخل، وبهيئة خفر الحدود على عتبة مركز حدودي؛ كل هذه الأشياء لم تعد موجودة. واصل سيره إلى الأمام. كانت الظلمة قد غشت الطريق. بعد حين وصل إلى مدخل الشارع الصغير رادزويل، هناك حيث كان ينتظر مارغريت لو كوز حينما كانت تشتغل في ملحقة تابعة لروشوليو أنتيريم. كانت تشتغل بمفردها في هذه الإدارة وكانت في واقع الأمر تشعر بالراحة لأنها لم تعد تحمل على «عاتقها»ـ كما كانت تقول ـ عبء ميروفي والآخرين. كانت ترتاب من أمرهم، وخصوصا ميروفي ورئيس المكتب، الشخص الأسمر الذي يشبه رأسه رؤوس الكلاب الشرسة. مرة حينما سألها عن طبيعة العمل تحديدا في ريشوليو أنتيريم، قالت له:

«أتعلم، جون، لديهم علاقات بدائرة الشرطة.»

ثم استأنفت كلامها بعد حين:

«أوه، إنه عمل إداري...إلى حد ما يشبه مقاولة فرعية...»

لم يجرؤ على إخبارها بأنه يجهل معنى «مقاولة فرعية»، كما أنه أحس بأنها هي الأخرى كانت تريد للأمور أن تبقى في دائرة الغموض. ومع ذلك فقد سألها:

«لماذا دائرة الشرطة؟»

«أظن أن ميروفي والآخرين يعملون إلى حد ما لصالح دائرة الشرطة...لكن هذا لا يعنيني...يطلبون مني أن أرقن على الآلة الكاتبة وأن أترجم تقارير مقابل ستة مائة فرنك في الشهر...بالنسبة للباقي...»

Twitter: @ketab_n

شعر بوسمان بأنها إنما تمده بهذه التفاصيل لتبرئ ذمتها. وهكذا قام بمحاولة أخيرة:

«لكن، ماهي تحديدا هذه الريشوليو أنتيريم؟»

هزت منكبيها.

«أوه...إنها مكتب للمنازعات...»

لم يدرك دلالة «منازعات» كما أنه لم يدرك سابقا دلالة «مقاولة فرعية.» ولم يكن يرغب في أن تشرح له الأمر أكثر. على أي حال، أخبرته بأنها تأمل أن تجد عملا جديدا في المستقبل القريب. هكذا، فميروفي والآخرون يعملون «إلى حد ما» لصالح دائرة الشرطة...قدح هذا لديه كلمة أخرى هي بالرغم من نبرتها التي تدغدغ السمع إلا أنها تحمل في طياتها شيئا ينبئ بالخطر: «واشية.» لكن هل تدرك مارغريت معنى ذلك؟

كان ينتظرها على الدوام في نفس الساعة عند مدخل شارع رادزويل، شارع ضيق حيث لا تمر السيارات وكان بوسمان يتساءل إذا لم تكن الطريق مقطوعة عند نهايته. خلال هذه الأثناء، كان الظلام قد حل. لمناسبتين أو ثلاث، حينما جاء، اضطر لانتظارها داخل مكتبها بسبب البرودة الشديدة. البناية الأولى على اليمين. يدخل المرء عبر باب شديد الانحناء. ثمة سلالم تتحرك من جهتين بحيث أن الشخص الذي يصعد السلالم لا يلتقي أبدا بالشخص الذي يهبط. كما أن للمبنى بابا خاصا بالعربات يفضي إلى شارع فالوا. كان قد أخبر مارغريت، على سبيل الدعابة، بأنه لا يوجد ما يدعو للخشية بشأن المدعو بوبافال. إذا ما رمقته في الخارج،

Twitter: @ketab_n

فيمكنها أن تهرب عن طريق المخرج الآخر. وإذا ما اتفق أن تواجدا عن طريق الصدفة في السلالم المزدوجة، هي وبويافال، فلن يلتقيا أبدا وستجد متسعا من الوقت للهرب. كانت تصغي إليه باهتمام، غير أن نصائحه لا تبدو أنها هدأت فعلا من روعها.

كلما جاء بوسمان للالتحاق بها، كان يقطع ممرا تغطي جدرانه خزانات حديدية توجد وسطها طاولة ضخمة تملأها عن آخرها الملفات والأضابير. كان الهاتف يرن ويرن دون من يرد عليه. كان المكان الذي تشتغل فيه أصغر حجما وكانت نافذته تطل على شارع فالوا. تشير المدخنة والزجاج الذي يعلوها إلى أن هذا المكتب كان في السابق عبارة عن غرفة. خلال المساءات التي يكون خلالها برفقتها هنا، قبل أن ينزلا السلالم المزدوجة وينطلقا عبر شارع فالوا، كان ينتابه اليقين بأنهما يوجدان خارج مدار الزمن، بعيدا عن كل شيء، وقد كان هذا الإحساس يتضاعف هنا قياسا بالغرفة بأوتوي.

الهدوء، هاتف الممر الذي يرن عبثا، الآلة الكاتبة التي تنهي عليها مارغريت رقن «تقرير،» كل هذه الأشياء تخلف لدى بوسمان الإحساس بأنه يحيا في حلم من أحلام اليقظة.

يصلان إلى محطة قطار الأنفاق بعد أن يقطعا الطريق مشيا على الأقدام عبر الأقواس المقفرة للقصر الملكي. يذكر بوسمان الرواق التجاري لمحطة قطار الأنفاق هذه وكان يتساءل إذا ما زال قائما اليوم. كانت هنالك مخازن متنوعة: حلاق، بائع ورود، بائع سجادات، أكشاك هاتفية، محل للثياب الداخلية للنساء مع مشدات

Twitter: @ketab_n

سراويل لزمان ولى، وعند نهاية منصة حيث يجلس رجال في أرائك جلدية يقوم بتلميع أحذيتهم أشخاص من شمال إفريقيا وقد تربعوا عند أقدامهم. في مكان آخر، توجد لوحة، عند بداية الرواق، كانت تثير اهتمام بوسمان منذ سنين طفولته وكانت تحمل إضافة إلى سهم العبارة التالية: ف.س. ماسحو الأحذية.

ذات مساء بينما كان هو ومارغريت يمران أمام هذه المنصة الخاصة بماسحي الأحذية، قبل الهبوط إلى السلالم التي تفضي إلى مسالك قطار الأنفاق، سحبته من ذراعه. أخبرته بصوت خافت بأنها تظن بأنها تعرفت على بويافال يلمع حذاءه. إنه يجلس في إحدى الأرائك.

أخبرها بوسمان: «انتظري للحظة.»

تركها عند عتبة السلالم وشق طريقه بخطى ثابتة نحو ركن ماسحي الأحذية. ثمة زبون وحيد، يجلس في واحدة من الأرائك الموجودة على المنصة، يرتدي معطفا ذا لون بني خفيف. كان شخصا أسمر في الثلاثين من عمره، وجهه ضامر لكن مظهره يشير إلى أنه يبلي حسنا. بالإمكان أن يكون صاحب ورشة في طريق الشون إليزي أو حتى مطعم في نفس الحي. كان يدخن سيجارة بينما كان رجل صغير ذو شعر أبيض يلمع حذاءه وهو ينحني على ركبه، وقد أثار هذا امتعاض، إن لم يكن حنق بوسمان. هو الذي كان عادة لطيفا وخجولا، كانت تنتابه بين الفينة والفينة فورات الغضب والتمرد. تردد لحظة، ثم وضع يدا على كتف الرجل وضغط بقوة بأصابعه. حدجه الآخر بنظرة رعب:

Twitter: @ketab_n

«أبعد يدك عني.»

كان الصوت صارما، تشي نبراته بالتهديد. كان بوسمان يأمل من كل جوارحه أن يكون هذا الشخص بويافال. كان يرغب في مواجهة الخطر وجها لوجه. أرخى قبضة الأصابع.

«السيد بويافال، أليس كذلك؟»

«إطلاقا لا.»

نهض الرجل وانتصب أمام بوسمان في موقف دفاعي.

سأله بوسمان بصوت هادئ: «هل أنت متأكد؟ ألست السيد بويافال؟»

كان بوسمان يعلوه قامة وكان بدينا وفارعا. كان الآخر واعيا بذلك. بقي ساكنا.

«إذن، سحقا.»

التحق بمارغريت عند عتبة السلالم. كانت شاحبة جدا.

«إذن؟»

«لم يكن هو.»

كانا يجلسان في إحدى الكراسي في انتظار قطار الأنفاق. لاحظ بأن يدي مارغريت كانتا ترعشان قليلا.

«لكن لماذا تخشينه إلى هذا الحد؟»

لم تحر جوابا. تحسر لأن ذلك الرجل لم يكن بويافال. كان يأمل أن يضع نهاية لهذا الموضوع إلى الأبد. كان الأمر برمته غير منطقي، هذا التهديد المعلق في الهواء، هذا الشخص الحاضر لكن الخفي الذي يرعبها دون أن تخبره تحديدا سبب ذلك. هو

Twitter: @ketab_n

لا يخشى شيئا. على الأقل كان يكرر ذلك على مسامع مارغريت حتى يهدئ من روعها. فمادام أنه كان يتعامل مع السيدة ذات الشعر الأحمر ورجل الدين السابق منذ سنوات الطفولة، فلم يعد يأبه لأي شخص آخر. أعاد ذلك مرة أخرى على مسامع مارغريت، هناك، على كرسي محطة قطار الأنفاق. كان يحاول أن يسليها قليلا وذلك بوصف هذا الثنائي الذي عليه أن يلتقي به حينا بعد حين، عن طريق الصدفة في شارع: الرجل القصير، وجنتاه الضامرتين، ونظرته التي تشبه نظرة المحقق؛ المرأة ذات الذقن المؤثر، دائما بنظرتها المتعالية في سترتها الواقية...كانت تصغي إليه وفي الأخير تنفرج أساريرها عن ابتسامة. كان يخبرها بأن كل هذه الأشياء لا قيمة لها، لا هذان الشخصان اللذان يتعقبانه بحقدهما دون أن يدري سببا لذلك واللذان يطلبان منه المال كل مرة، ولا بويافال، ولا أي شخص آخر. يمكنهما، متى شاءا، مغادرة باريس نحو آفاق جديدة. لقد كانا حرين طليقين. كانت تهز هامتها كما لو أقنعها كلامه. بقيا جالسين في الكرسي بينما كان القطار تلو القطار يمر.

كان شخص ما قد همس له ذات حُلم بالعبارة التالية: أوتوي البعيدة، الحي الفاتن لأحزاني الكبيرة، وكان قد دونها في دفتره، عِلما أن بعض الكلمات التي تطرق سمع المرء في الحلم، والتي تؤثر فيه والتي تعد نفسك بالحفاظ عليها، تنسرب منك عند اليقظة أو تفقد معناها تماما.

كان قد راوده تلك الليلة حلم يتعلق بمارغريت لو كوز، وهذا نادرا ما يحدث. كانا يجلسان معا حول طاولة في حانة جاك

Twitter: @ketab_n

الجزائري، الطاولة الأقرب إلى باب الدخول الذي كان مشرعا عن آخره على الشارع. حدث ذلك خلال زوال صيفي وكانت أشعة الشمس تبهر عيني بوسمان. تساءل إذا ما كان وجهه حينها يشبه وجهه الآن أو أنه كان وجها لفتى في الواحد والعشرين من عمره. لا شك أنه وجهه وهو في الواحد والعشرين من عمره. وإلا لكانت قد نظرت إليه بشكل غريب ولم تتعرف عليه. كان كل شيء يطفو في ضوء شفاف، بسبب الباب الذي يفضي إلى الشارع. عاودته بعض الكلمات، لا شك أنها عنوان كتاب ما: باب على الصيف. ومع ذلك فقد كان قد تعرف على مارغريت لو كوز خلال الشتاء، شتاء بارد جدا بدا له أنه سيستمر إلى الأبد. كانت حانة جاك الجزائري ملجأ حيث يستجير الواحد من عواصف الثلج كما أنه لا يذكر أنه كان قد التقى مارغريت خلال الصيف.

لاحظ ظاهرة غريبة: كان هذا الحلم يضيء بنوره كل ما كان واقعيا: الشوارع، الأشخاص الذين كان هو ومارغريت يرافقونهم معا. ماذا لو كان هذا النور حقيقيا، النور حيث كانا يسبحان معا حينئذ؟ إذن لماذا ملأ، في ذلك الزمان، دفترين، بأحرف صغيرة تشي بإحساس بالخشية والاختناق؟

ظن أنه توصل إلى الجواب: كل ما نحياه يوما بعد يوم تطبعه لا يقينيات الحاضر. مثلا، عند كل ركن شارع، كانت مارغريت تخشى أن تصادف بويافال، أما هو، فقد كان يتوجس خيفة من لقاء الثنائي المزعج الذي يتعقبه، دون أن يدري سبب ذلك، بحقده واحتقاره واللذين لن يترددا في تفتيش جيوبه، إذا ما مات، هنا، في

Twitter: @ketab_n

الشارع، بطلق رصاص يصيبه في القلب. لكن من بعيد، مع مسافة السنين، تنمحي الشكوك والمخاوف التي تحياها في الحاضر، كما التشويش الذي يحول دون سماعك لموسيقى شفافة تنبعث من المذياع. نعم، حينما أفكر في الأمر الآن، يبدو ذلك كما لو في حلم: مارغريت وأنا نجلس قبالة بعضنا البعض في ضوء شفاف، لا زماني. ناهيك عن أن هذا كان ما شرحه لنا الفيلسوف الذي التقيناه ذات مساء بدينفر روشيرو:

«الحاضر مليء دائما باللايقينيات، أليس كذلك؟ لعلكم تتساءلون بقلق عما سيكون عليه المستقبل، أليس كذلك؟ وبعد ذلك يمر الزمن ويصير هذا المستقبل ماضيا، أليس كذلك؟»

وبقدر ما كان يتحدث بقدر ما كان يوقع كلامه بهذه «أليس كذلك؟» التي غدت مؤلمة أكثر فأكثر.

حينما سألها لماذا اختارت غرفة في هذا الحي النائي من أوتوي، أجابته:

«ذلك أكثر أمانا.»

هو الآخر كان قد لجأ تقريبا إلى الأطراف، عند نهاية تومب إيسوار، حتى يُفلت من إسار الثنائي العدواني الذي كان يلاحقه دون هوادة. لكنهما كانا قد اكتشفا عنوانه الجديد، وهكذا جاءت أمه، ذات مساء، تطرق بقبضتها على باب غرفته بينما كان الرجل ينتظر في الشارع. في الغداة، بدا له حي تومب إيسوار وحي مونتسوري أقل أمنا بكثير مما كان يظن. كان يلتفت يمينا وشمالا قبل أن يدخل إلى المبنى، وحينما يصعد السلالم، كان يخشى أن

Twitter: @ketab_n

يكون الثنائي في انتظاره وسط الممر، أمام باب غرفته. وبعد ذلك، بعد مرور بضعة أيام، نسي الأمر تماما. عثر على غرفة أخرى في نفس الحي، شارع الأود. لحسن الحظ، كان لا بد أيضا الاعتماد، كما كان يقول الفيلسوف، على طيش الشباب، أليس كذلك؟ ثمة أيام مشمسة لا تطالعه حينها مارغريت بعينيها القلقتين.

أوتوي البعيدة...كان يتأمل الخارطة الصغيرة لباريس على الصفحتين الأخيرتين من الدفتر المصنوع غلافه من الجلد. كان يتصور دائما أن بإمكانه العثور وسط بعض الأحياء على الأشخاص الذين التقى بهم خلال فترة شبابه، كما كان عمرهم ومظهرهم آنذاك. كانوا يحيون حيوات مزدوجة، بمنأى عن تصاريف الدهر... بين الطوايا السرية لهذه الأحياء، كانت مارغريت والآخرون لا يزالون يحيون كدأبهم في ذلك الزمن. للوصول إليهم، يجب معرفة بعض الممرات الخبيئة عبر المباني، شوارع تبدو كما لو كانت مغلقة للوهلة الأولى ولم يتم الإشارة إليها في الخارطة. في الحلم، كان يعلم كيف يصل إليها انطلاقا من محطة قطار أنفاق محددة. لكنه، في اليقظة، لا تعتريه الحاجة للتأكد من حقيقة ذلك في باريس الواقعية. أو بالأحرى، لم يكن يجرؤ على ذلك.

ذات مساء، كان ينتظر مارغريت على رصيف شارع الأوبسيرفاتوار، مستندا إلى سياج الحديقة، وكانت هذه اللحظة معزولة عن اللحظات الأخرى، مجمدة في الأبدية. لماذا هذا المساء، بشارع الأوبسيرفاتوار؟ لكن، لاحقا، تتحرك الصورة من جديد، يواصل الشريط عمله وكان كل شيء بسيطا ومنطقيا. كان

Twitter: @ketab_n

ذلك اليوم الأول الذي ذهبت فيه للقاء الأستاذ فيرن. من أوتوي، كانا قد استقلا قطار الأنفاق إلى مونبارناس بيانفوني. مرة أخرى ساعة الذروة. هكذا آثرا الذهاب مشيا على الأقدام بقية الطريق. كانت قد وصلت قبل الموعد بكثير. كانت الفصول تختلط. لابد أن الشتاء لا يزال قائما، بعيد مرور مارغريت على الإدارة الموجودة على شارع رادزويل. لكن، حينما وصلا إلى مشارف حدائق الأوبسيرفاتوار، بدا لبوسمان، مع وجود أربعين سنة تفصله عن الحدث، بأن ذلك كان مساء من مساءات الربيع وليس الصيف. كانت أوراق الأشجار تشكل قبة فوق الرصيف الذي يسيرون فوقه، مارغريت وهو. أخبرته:

«بإمكانك مرافقتي.»

لكنه لم يعتبر الدعوة جدية تماما. لا، سينتظرها أمام المبنى حيث يقيم الأستاذ فيرن. كان يتأمل الواجهة. في أي طابق يوجد منزل الأستاذ فيرن؟ لا شك أنه يوجد حيث ينبعث الضوء من مجموعة من النوافذ الكبيرة. وهو يستند إلى سياج الساحة، قدر أنه ربما، من هذا المساء فصاعدا، ستتخذ حياتهما مجرى جديدا. كان كل شيئا هنا هادئا ومريحا: أوراق الأشجار، الصمت، واجهة المبنى حيث نحتت، فوق الباب المخصص للعربات، رؤوس أسود. وكانت هذه الأسود تبدو كما لو أنها تقوم بحراسة المكان وتنظر إلى بوسمان بنظرة حالمة. شرعت إحدى النوافذ الكبيرة فتناهى صوت موسيقى تعزف على البيانو.

حينما غادرت البناية، أخبرته بأن كل شيء على ما يرام.

Twitter: @ketab_n

لقد التقت بزوجة الأستاذ. لن تتكفل برعاية الأطفال طول الوقت ولكن فقط لثلاثة أيام خلال الأسبوع. شرحت لها زوجة الأستاذ بأن العمل لا يتعلق فعلا بوظيفة مربية. لا. سيكون ذلك بالأحرى أشبه بعمل مساعدة، مع أن الفرق بسيط بحيث لن تضطر لقضاء الليل في المنزل.

ذلك المساء، عرض بوسمان أن يطلعها على غرفته، وسط الطابق الرابع عشر، شارع لُود. لم يستقلا قطار الأنفاق. كانا يسيران على طول شارع تحده ملاجئ ودور رهبان، بالقرب من المرصد حيث يتخيل بوسمان بعض العلماء، في الهدوء والعتمة، يشاهدون عبر منظارهم النجوم. ربما قد يكون الأستاذ فيرن أحدهم. ماذا يمكن أن يكون تخصصه؟ كانت مارغريت تجهل ذلك. لقد لاحظت خزانة كبيرة للكتب في الشقة مع وجود سلم من الخشب الشفاف للوصول إلى الرفوف العليا. كانت كل الكتب مغلفة وتبدو قديمة جدا.

Twitter: @ketab_n

حينما علمت بأن عليها لقاء الأستاذ فيرن، جاء بوسمان إلى مكتبها باكرا خلاف المعتاد. كان عليها أن تمر على وكالة ستيوارت للتشغيل، ضاحية سانت هونوري، حتى تتسلم عنوان الأستاذ فيرن وحتى يحددوا لها اليوم وساعة الموعد.

كان في استقبالهم رجل أشقر ذو عينان صغيران شقراوان حتى أن بوسمان تساءل إذا ما كان الأمر يتعلق بالسيد ستيوارت نفسه. لم يندهش الأخير لوجود بوسمان ودعاهما للجلوس على الأرائك الجلدية، أمام مكتبه.

خاطب مارغريت: «لقد تمكننا من توفير عمل لك. وإن استغرق ذلك بعض الوقت...»

وهكذا أدرك بوسمان أنها كانت قد وضعت طلبها لدى الوكالة قبل الالتحاق بروشوليو أنتيريم.

ثم تابع الأشقر: «من المؤسف أنك لم تحصلي على شهادة من السيد باغيريان الذي كنت تعملين عنده في سويسرا.»

ردت مارغريت: «لم أعد أتوفر على عنوانه.»

أخرج من إضبارة ملفا وضعه أمامه. لاحظ بوسمان أعلاه صورة تعريفية. أخذ الأشقر من على المكتب ورقة خاصة بالمراسلات يوجد أعلاها رمز وكالة ستيوارت. نقل فيها المعلومات التي توجد في الملف. عقد حاجبيه وهز رأسه:

Twitter: @ketab_n

«هل أنتِ حقا من مواليد برلين، راينيكيدورف؟»

تردد قليلا بشأن مقاطع الكلمة الأخيرة. تضرج وجهها قليلا بحمرة.

«نعم.»

«هل أنت من أصول ألمانية؟»

دائما السؤال ذاته. لاذت بالصمت. أخيرا أجابت بصوت واضح:

«ليس تماما.»

واصل نقل المعلومات من الملف بجدية كما لو كان يقوم بفرض منزلي. تبادل بوسمان النظر مع مارغريت. طوى الأشقر الورقة ووضعها في مظروف يحمل هو الآخر في أعلاه رمز وكالة ستيوارت.

«ستسلمين هذا للأستاذ فيرن.»

مد المظروف إلى مارغريت.

« أظن أن العمل لن يكون صعبا كثيرا. هما طفلان في الثانية عشر من عمرهما.»

ركز عيناه الزرقاوان الصغيرتان على بوسمان.

«ماذا عنك؟ هل تبحث أنت الآخر عن عمل؟»

لم يجد بوسمان لاحقا مبررا لماذا كان جوابه نعم. هو الذي يبدو عنيفا أحيانا، كان يتفادى غالبا معاكسة محاور ولا يجرؤ على رفض الاقتراحات التي لم يكن يتوقعها بتاتا.

«إذا كنت تبحث عن عمل، فيمكنك أن تضع طلبا لدى وكالة ستيوارت.»

Twitter: @ketab_n

خـلال لحظـات كهـذه، كان يداري حرجه بابتسـامة، وقد ظن الأشقر بدون شك أن هذه الابتسامة كانت علامة موافقة. أخذ ملفا من على مكتبه.

«الاسم واللقب؟»

«جون بوسمان.»

«هل قمت بدراسة جامعية؟»

حينمـا أراد أن يجيبـه بأنـه لا يتوفـر على أي شـهادات أخرى غير شـهادة البكالوريا، انتاب بوسـمان شـعور بهوان مباغت وأراد أن يضع حدا لهذا الحوار، لكنه خشي أن ينعكس ذلك سلبا على مستقبل مارغريت وأن يسبب العناء لهذا الأشقر.

طلـب منـه تاريخ ومـكان ازدياده وعنوانه. مجـاراة للحديث، أخبره بوسمان بتاريخ ميلاده الحقيقي وبعنوانه على 28 شارع لُود.

«هلا تفضلت بالتوقيع هنا؟»

أشار له إلى أسفل الملف ومد له قلما. وقع بوسمان.

«سأحتاج إلى صورة تعريف. سترسلها لي عن طريق البريد.»

بـدت المفاجـأة على محيا مارغريت بسـبب هذه الليونة. بعد أن وقع، قال بوسمان للأشقر:

«كما تعلم، قد لا أحتاج حالا إلى العمل.»

«هناك العديد من الفرص. في انتظار الوظائف القارة، يمكننا أن نتدبر لك شيئا ما.»

ران الصمت. نهض الأشقر. ثم أخبر مارغريت:

«أتمنى لك حظا موفقا.»

Twitter: @ketab_n

رافقهما حتى باب المكتب. ضغط على يد بوسمان مودعا.

«سنتصل بك كلما طرأ جديد.»

في الخارج، سألته لماذا ترك الآخر يملأ الملف نيابة عنه. هز بوسمان منكبيه.

كم من الملفات، الاستمارات، بطاقات الطلبات التي ملأها بخطه الضيق، إرضاء لشخص ما، للتخلص من المضايقة، أو حتى من باب اللامبالاة، أو دون هدف معين... التوقيع الوحيد الذي حز في نفسه كثيرا كان ذلك الذي وسم طلبه الخاص بكلية الطب، حينما كان في سن الثامنة عشر، لكنهم أعرضوا عن طلبه لأنه لم يحصل على بكالوريا علمية.

غداة زيارتهم، أرسل صورة تعريف إلى وكالة ستيوارت. أخبر مارغريت بأن ذلك إجراء احتراسي وبأنه لا يجب التسبب في أي ضوضاء...

ألا تزال وكالة ستيوارت قائمة في مكانها إلى الآن؟ فكر بأن يذهب للتحقق من ذلك. في حالة إذا ما كانت الوكالة تشغل نفس المكاتب، سيبحث في الأرشيف عن ملفه وعن ملف مارغريت التي تحمل صورهم التي تعود إلى ذلك العهد. وربما قد يجد في لقائه ذلك الأشقر ذا العينين الزرقاوين الصغيرتين. وسيبدأ كل شيء من جديد كما كان.

خلال هذه الأثناء، لم يكن يتردد على المكتبة الكثير من الأشخاص. حاول بوسمان تذكر شكل المكان. الخزانة تحديدا

Twitter: @ketab_n

إضافة إلى طاولة من الخشب الغامق. كان الباب الداخلي يفضي إلى عنبر يعلوه سقف زجاجي، خزان مليء بالكتب. على أحد الجدان علقت لوحة قديمة تحمل اسم كاسترول. في الطرف الأقصى، يفضي الباب الحديدي المتزحلق إلى شارع آخر. استنتج بوسمان بأن الأمر يتعلق بورشة قديمة. ناهيك عن أنه ذات زوال حينما كان يفتش في الأرشيف وجد صك الإيجار الأصلي: نعم، لقد كان على حق. لقد احتلت مكتبة ومنشورات سابلي مكان مرآب الزاوية.

تقود سلالم عريضة، تعلوها قبضة حديدية، من المكتبة إلى الطابق الأوسط حيث كان في الماضي مقر مكاتب دار النشر. على الباب الأيمن، تحمل صفيحة نحاسية اسم الناشر: «لوسيان هورنباخر.» ثمة ممر. بعد ذلك قاعة يغشاها الظلام لدرجة أن بوسمان كان يلقبها بقاعة التدخين. أريكة ومقاعد من الجلد الغامق. منفضات سجائر على ركائز من ثلاثة قوائم. كانت الأرضية مغطاة بسجاد فارسي. وحول كل ذلك تمتد خزانات زجاجية تضم كلها الأعمال التي نشرت خلال العشرين سنة من عمر دار النشر سابلي.

غالبا ما كان يقضي أول الزوال في المكتب القديم للوسيان هورنباخر. من النافذة، يمكن مشاهدة، من خلل فسحة شارع راي، الأشجار الأولى لمنتزه مونتسوري. كان يترك الباب مشرعا حتى يسمع الصوت الدقيق للجرس الذي يعلن، كل مرة، عن قدوم زبون في الطابق السفلي. كان المكتب صغيرا لكنه ضخم، حيث توجد، في كل جهة، العديد من الأدراج. لم تتغير الأريكة ذات

Twitter: @ketab_n

الجذر الوتدي منذ عهد لوسيان هورنباخر. في مواجهة النافذة، ثمة أريكة على الحائط، تغطيها قطيفة زرقاء غامقة. وسط المكتب، توجد ساعة رملية، رمز دار النشر. لاحظ بوسمان بأنها تحمل علامة صانع مجوهرات كبير وقد تفاجأ لأنها لم تتعرض للسرقة طول هذه المدة. كان ينتابه الإحساس بأنه حارس مكان. توارى لوسيان هورنباخر عن الأنظار خلال الحرب، وبعد عشرين سنة كان بورلاغوف، المحاسب المسير، الذي يتردد بانتظام على المكتبة، يتحدث دائما بلغز عن هذا الاختفاء. كان رجلا في الخمسينيات من عمره، وخط الشيب شعره المدبب، وسحنته برونزية. كان يعمل لدى هورنباخر في شبابه. إلى متى ستبقى المكتبة على هذا الحال؟ كلما سأل بورلاغوف عن المستقبل غير المؤكد للمنشورات القديمة لدار سابلي، كانت الإجابات التي يحصل عليها ضبابية.

كانت الكتب التي نشرها لوسيان هورنباخر في السابق تملأ رفوف المكتبة التي توجد في الطابق السفلي. عدد كبير منها يتعلق بالتنجيم، والديانات الشرقية وعلم الفلك. كما يحتوي الفهرس على أعمال مهمة تتناول مواضيع متنوعة. في بداياته، قام هورنباخر بنشر أعمال بعض الشعراء وبعض الكتاب الأجانب. غير أن الزبائن الذين لا يزالون يرتادون المكتبة كانوا يولون عنايتهم لعلوم التنجيم وكانوا يقصدون المكتبة سعيا وراء المؤلفات التي لا توجد في مكان آخر بحيث كان بوسمان غالبا ما يضطر للبحث عنها في المخزن لديهم.

كيف حصل على هذا العمل؟ ذات زوال بينما كان يتجول

Twitter: @ketab_n

بالقرب من إقامته في الشارع الرابع عشر، شدت انتباهه علامة، نصفها اندثر، معلقة على الخزانة الزجاجية، منشورات سابليي. دخل. كان بورلاغوف يجلس خلف الطاولة. بدآ بحديث. يجري البحث عن شخص يقوم بملازمة المكتبة أربعة أيام في الأسبوع... طالب. أخبره بوسمان بأن العرض يثير اهتمامه، ولكنه ليس بطالب. لا مشكلة. سيتقاضى مقابل هذا العمل مائتي فرنك في الأسبوع.

خلال المرة الأولى التي قامت فيها مارغريت بزيارته في مكان عمله، كان ذلك يوم سبت مشمس من أيام الشتاء. من نافذة مكتب هورنباخر، لمحها، هناك، عند منعطف شارع راي. يذكر أنها ترددت قليلا. توقفت فوق الرصيف، وكانت تلتفت يمينا وشمالا، في الاتجاهين معا، كما لو نسيت رقم المكتبة. بعد ذلك واصلت السير. كان عليها أن تتعرف على الخزانة الزجاجية من بعيد. منذ ذلك اليوم، كلما اتفقا على اللقاء بالمنشورات القديمة لسابليي، كان يراقبها من النافذة. كانت تسير دون توقف للقائه على الرصيف على منحدر شارع راي في ضوء شفاف للشتاء حيث تكون السماء زرقاء، لكن يمكن أن يكون ذلك أيضا الصيف مادام بإمكان المرء رؤية، تماما في الوسط، أوراق أشجار المنتزه. كانت الأمطار تتساقط أحيانا، غير أن مارغريت تبدو هادئة راضية.كانت تخطو تحت الأمطار وإن كانت لا تبدو هادئة كما العادة.كانت تضغط فقط بيدها اليمنى على ياقة معطفها الأحمر.

Twitter: @ketab_n

كان يتردد على شقة الأستاذ فيرن بعض أيام الجمعة مساءً، اليوم الوحيد في الأسبوع الذي يبقى فيه الأستاذ وزوجته خارج المنزل حتى منتصف الليل وحيث تقوم مارغريت بمجالسة الأطفال إلى حين عودتهم.كانت ترافقهما عند بداية الزوال، فتأخذ الفتاة إلى مدرسة سيفينيي الإعدادية، والولد إلى مدرسة مونتينيو الثانوية. ثم تبقى لتناول العشاء معهم. وبعد ذلك تكون حرة، وكان بوسمان ينتظرها في شارع الأوبسيرفاتوار.

ذات مساء، التحقت به عند سياج الساحة وأخبرته بأنها مضطرة للبقاء مع الأطفال. فلا يزال آل فيرن لدى زميل لهم ولن يتمكنا من العودة إلا بعد موعد العشاء. اقترحت عليه أن يرافقها إلى الشقة، لكنه تردد. ألا ترى بأن وجوده سيفاجئ الأستاذ وزوجته حين عودتهم وسيتسبب ذلك في مضايقة الأطفال؟ كما أنه ليس متعودا تماما على هذا النوع من الأشخاص ناهيك عن أن وظائفهم تصيبه بالرعب: هو، جورج فيرن، أستاذ القانون الدستوري في مدرسة راقية جدا للدراسات العليا، وهي، الأستاذة سوزان فيرن، محامية في محكمة باريس، كما تشير إلى ذلك أوراق الرسائل التي عرضتها عليه مارغريت.

لحق بها إلى الشقة بينما كان شعور بالخشية يفترسه. لماذا كان يتوجس خيفة من المكان كما لو كان لصا؟ الشيء الوحيد

Twitter: @ketab_n

الذي أثار انتباهه، منذ الرواق، هو نوع من التقشف. كانت الجدران مغطاة بخشب داكن. تكاد الغرفة التي كانت نوافذها تطل على حدائق الأوبسيرفاتوار تبدو جرداء. لكن، هل هذه فعلا صالة؟ ثمة مكتبان صغيران وضعا أمام النوافذ، وقد شرحت له مارغريت بأن الأستاذ وزوجته يعملان غالبا، جنبا إلى جنب، كل واحد منهما جالس إلى أحد المكاتب.

هذا المساء، كان الطفلان في ملابسهما المنزلية السكتلاندية، يجلسان على أريكة من الجلد الأسود توجد في الصالة. عند وصول مارغريت وبوسمان، كانا ينكبان على كتبهما وقد ارتسمت على محياهم سيماء الانشغال والجدية. نهضا وراحا يسلمان على بوسمان بطريقة احتفالية. لا يبدو أنهما تفاجآ بتاتا لحضوره.

كان الصبي يطالع كتابا في الرياضيات. تفاجأ بوسمان حينما رأى بأنه يضع ملاحظاته في الهامش. بينما كانت الفتاة غارقة في كتاب له غلاف أصفر من كتب كارني الكلاسيكية، تأملات باسكال. سألهما بوسمان عن سنهما. إحدى عشر واثنتا عشر. هنأهما على جديتهما ونضجهما المبكر. غير أن إطراءه لم يقع عليهما موقع المفاجأة، كما لو أن الأمور كانت بالنسبة لهما ضربا من المسلمات. هز الفتى كتفيه وانخرط من جديد في كتابه بينما ألقت الفتاة نظرة خجولة باتجاه بوسمان.

بين نافذتي الصالون علقت صورة في إطار: الأستاذ وزوجته، خلال سنوات الشباب المبكرة، ترفرف ابتسامة على محياهم، بينما تعلو نظرتهم صرامة وهما في زي المحاماة. خلال الأمسيات

Twitter: @ketab_n

القليلة التي كان فيها في الشقة برفقة مارغريت، كانا ينتظران، على الأريكة، عودة الأستاذ وزوجته. كانت قد رافقت الأطفال إلى غرفة النوم وسمحت لهما بساعة إضافية للمطالعة في سريرهما. كان مصباح سريري بلون أحمر، وضع على منضدة صغيرة، يشيع ضوءا حارا ومهدئا يترك دوائر معتمة. استدار بوسمان نحو النوافذ وتصور الأستاذ والأستاذة فيرن، كل واحد منهما في مكتبه، يشتغلان على ملفاتهما. ربما، خلال أيام الإجازة، يجلس الأطفال إلى جانبهما على الأريكة، غارقين في كتبهما، كما تنقضي أيام السبت زوالا هكذا، ولا شيء يضايق الهدوء الذي يسود هذه العائلة الجدية.

هذا الصمت وهذا الهدوء، يبدو لبوسمان أنه يفيد من هذا الجو خلسة، رفقة مارغريت. نهض ليلقي نظرة عبر النافذة، وقد كان يتساءل إذا لم تكن حدائق الأوبسيرفاتوار، في الأسفل، توجد في مدينة غريبة حيث كانا قد وصلا للتو، مارغريت وهو.

في البداية، شعر بخشية حادة حينما سمع الباب يفتح ويطبق حوالي منتصف الليل، وأصوات الأستاذ فيرن وزوجته تنداح عبر الردهة. تطلع بنظره مباشرة إلى مارغريت وشعر بأنه سينقل إليها هلعه إذا لم يستجمع قواه. نهض واتجه نحو باب الصالون في اللحظة التي دخل فيها آل فيرن. مد لهما يده كما لو كان يثب إلى الماء، وقد شعر بالطمأنينة تماما حينما، سلم عليه الواحد منهما بعد الآخر.

غمغم: «جون بوسمان.»

كانا جديان شأنهما شأن أطفالهما. وكما أطفالهما أيضا،

Twitter: @ketab_n

فقد بدا أن لا شيء يقع عليهما موقع المفاجأة، وخصوصا وجود بوسمان. هل سمعا فعلا اسمه؟ كان الأستاذ فيرن متعاليا، شارد الذهن ساهم النظرة، يحلق هناك حيث يتم التغاضي عن سفائف مجريات الحياة شأنه شأن زوجته، بنظرتها الباردة، وشعرها القصير، ومظهرها الخشن وطريقتها الفظة في الحديث. غير أن كل ما أربك بوسمان بشأنهم خلال هذا اللقاء الأول تبدى في الأخير مبعث الراحة بحيث قدر أن العلاقة مع هذين الشخصين قد تكون مفيدة بالنسبة له.

وبصوت فاجأت نبرته الرطبة بوسمان، سأل الأستاذ مارغريت: «هل راجع أندري جيدا الرياضيات؟»

« نعم، سيدي.»

وبصوت غير واضح قال بوسمان:» لقد لاحظت بأنه يضع ملاحظاته على هامش الكتاب. هذا رائع بالنسبة لطفل في سنه...»

نظر الأستاذ وزوجته بحدة إلى بوسمان. لعل كلمة «رائع» قد وقعت عليهما موقع الصدمة؟

«أندري يحب دائما مادة الرياضيات.» قال الأستاذ بصوته العذب كما لو أنه لا يرى أي شيء استثنائي أو «رائع» في ذلك.

توجهت الأستاذة فيرن نحو بوسمان ومارغريت.

«أُنعمتم مساء،» قالت لهم وهي تنحني برأسها قليلا وظلال ابتسامة ترتسم على محياها.

وبعد ذلك غادرت الصالة. حياهم الأستاذ بدوره بنفس النبرة الغائبة شأنه شأن زوجته، لكنه ضغط على يد كل واحد منهما قبل

Twitter: @ketab_n

أن يتجه هو الآخر نحو الباب الذي يوجد في الداخل.

«هـذا غريـب،» قالـت مارغريـت حينما صـارا بمفرديهما في الصالـة. وتابعـت: «بإمكاننـا قضاء الليل في هذه الصالة...سـيكون الأمر بالنسبة لهما سيان...يبدو أنهما يحلقان في السحاب...»

على العكس كان لدى بوسمان الانطباع بأنهما لا يرغبان في تضييع وقتهما بسبب جزئيات تافهة، وخصوصا أنهما كانا يتحاشيان الحديـث المجانـي. كان بوسـمان يتخيل بـأن الوجبات، في الغرفة الداخلية التي تسـتعمل كغرفة للأكل، سـتكون جدية هي الأخرى. يتم استجواب الأطفال بخصوص مسألة في الرياضيات أو الفلسفة، ويجيـب كل واحـد منهمـا بوضـوح، بالنضـج المبكـر الـذي يميـز الموسيقيين الشباب العباقرة. لا بد أن الأستاذ والأستاذة فيرن، قدر بوسمان، قد تعرفا على بعضهما البعض على كراسي الكلية. لهذا السبب حافظا على شيء من التنافر في علاقتهما. إن ما يجمعهم، علـى مـا يبـدو، هو تواطؤ فكري كبير، رُفقـة الطلبة القدامى، حتى في طريقتهم الساخرة في الحفاظ على التكلف في مخاطبة بعضهم البعض.

ذات مساء، في الهدوء الساجي لحدائق الأوبسيرفاتوار، أدلى بوسـمان بملاحظـة أثـارت لـدى مارغريـت ضحكة قصيرة بسـبب النبرة الجدية التي استعملها:

«ليس الخطأ نقطة قوتهم.»

حظها على القول بأنهما شـقيقان. بالنسـبة له، ففيرن وزوجته يحتقران الروابط ذات الطبيعة العاطفية إذا لم تكن تسفر عن تبادل

Twitter: @ketab_n

مستمر للأفكار بين شخصين من جنسين مختلفين. لكنه يكن لهما احتراما كبيرا ويقرنهما بكلمات من قبيل: العدالة. الحق. الاستقامة. ذات مساء، حينما رافقت مارغريت الطفلين إلى غرفة النوم ومنحت لهما استثناء، تحت تأثير بوسمان، ساعتين إضافيتين للمطالعة، وجدا نفسيهما في الصالة، كما العادة.

أخبرها بوسمان: «يجب علينا طلب مساعدتهما.»

أطرقت مفكرة. هزت رأسها.

«نعم...سيكون ذلك جيدا...»

«ليس بالضبط مساعدتنا. بالأحرى توفير الحماية لنا، ما داما محاميان...» أخبرها بوسمان.

مرة، رافقها إلى غرفة الأطفال ووضعاهما في سريريهما المتشابهين، كل واحد رفقة كتابه. بعد ذلك أخذا يتجولان في أنحاء الشقة. تحتل الخزانة غرفة صغيرة وكانت مخصصة لكتب القانون والعلوم الإنسانية. على بعض الرفوف، توجد بعض أقراص الموسيقى الكلاسيكية. ثمة أريكة ومكبر صوت في الجانب الأيسر من الغرفة. لاشك أن الأستاذ والأستاذة فيرن يجلسان، جنبا إلى جنب، للاستماع للموسيقى، خلال أوقات الراحة. كانت غرفتهما مجاورة للخزانة، لكنهما لم يجرؤا على الدخول إليها. عبر الباب المفتوح، لاحظا سريرين متشابهين، كما في غرفة الأطفال. عادا إلى الصالة. لعله خلال هذا المساء شعر بوسمان كم هما وحيدان في هذا العالم. ياله من تناقض بين الأستاذ فيرن وزوجته، وأطفالهما، وهذه الشقة الهادئة وما ينتظرهما في الخارج، مارغريت

Twitter: @ketab_n

وهو، واللقاءات التي قد تكون من نصيبهما...شعر بإحساس شبيه إلى حد ما بالأمان والراحة وهو يتمدد، في الزوال في المكتب العتيق للُوسيان هورنباخر، على الأريكة ذات القطيفة الزرقاء الداكنة بينما كان يراجع فهرس منشورات سابليي أو وهو يحاول الكتابة في دفتره. عليه أن يحسم أمر الحديث إلى الأستاذ وزوجته وأن يطلب منهما نصيحة أو حتى دعما معنويا. كيف سيتمكن من تقديم وصف للمرأة ذات الشعر الأحمر ورجل الدين السابق؟ لنفترض أنه وجد الكلمات المناسبة، فلن يستطيع آل فيرن تصور أن مثل هؤلاء الأشخاص يمكن أن يوجدوا في الواقع وسينظرون إليه بنظرة ملئها الضيق والتبرم. والله وحده يعلم بأن الأمر يتعلق بذلك الشخص المدعو بويافال التي لا تجرؤ مارغريت حتى على منحه تفاصيل محددة بخصوصه...أكيد أن لا واحد منهما يتوفر على أي سند في الحياة. لا عائلة. لا ملجأ. إنهم مجرد أشخاص مُعدمين. أحيانا، يصيبه هذا بشعور خفيف بالدوران.

ذات مساء، إبان عودتهم، بدا له الأستاذ وزوجته أكثر ودا من ذي قبل. حينما دخلا الصالة، تحدثا قليلا بلطف إلى مارغريت وإليه.

«لستما متعبين كثيرا، أليس كذلك؟» أخبرهما الأستاذ بصوته العذب.

ظن بوسمان أنه لمح ظلال عطف في النظرة التي كانت تلقيها عليهما زوجته.

أجابت مارغريت بابتسامة كبيرة: «كلا...كل شيء على ما يرام.»

Twitter: @ketab_n

التفت الأستاذ نحو بوسمان.

«أ تتابع دراستك؟»

تكوم بوسمان في صدفة صمته، وقد تجمد من الخجل. خشي أن يجيبه بعبارات قد يخجل ما أن يتفوه بها.

«أعمل في دار نشر.»

«فعلا؟ أية دار نشر؟»

بدا لبوسمان أن الأستاذ وزوجته يكنان لهما عناية تنطوي على الاحترام. انتصبا واقفين أمام مارغريت وهو، كما لو كانا على أهبة مغادرة الصالة.

«منشورات سابليي.»

«لا أعرف دار نشر بهذا الاسم،» قالت الأستاذة فيرن، بتلك الفظاظة التي لاحظ بوسمان أنها تميزها.

«في الواقع أنا أهتم بأمور المكتبة...»

لكنه شعر للتو أن هذا التفصيل كان نافلا. تلاشى اهتمام الأستاذ فيرن وزوجته. لعلها تفاصيل تافهة بالنسبة لهما. ربما وجب الحديث إليهما دون مواربة. كانت مارغريت مثله، لا تجد أبدا الكلمات المناسبة لخلق تواصل حقيقي معهم؛ كل ما كانت تقوم به هو الابتسام لهما أو الإجابة على أسئلتهما النادرة التي تهم الأطفال.

سألت زوجة الأستاذ بنبرة تشي فقط بالمجاملة: «وأي نوع من المؤلفات توجد في مكتبتك؟»

«أوه... الكتب التي تتعلق بعلوم التنجيم على وجه الخصوص.»

Twitter: @ketab_n

ردت زوجة الأستاذ وهي تهز كتفيها: «ليس لنا دراية كبيرة بعلوم التنجيم.»

تشجع بوسمان أكثر.

«أظن أنكما لا تتوفران على الوقت للاهتمام بعلوم التنجيم حينما كنتما تقومان بدراسة القانون...»

ثم أشار، بيد مترددة، إلى الصورة المعلقة على الجدار، حيث يبدوان كلاهما، في ريعان الشباب، في زي المحاماة.

«كانت لدينا بؤر اهتمام أخرى،» قالت زوجة الأستاذ فيرن بصوت صارم جعل بوسمان يتحسر في الحال على توده.

ران صمت. بات الآن دور مارغريت لتستأنف الحوار من جديد.

«قريبا سيحل عيد ميلاد أندري...خطر لي أن نهديه كلبا صغيرا...»

تحدثت بنبرة ساذجة وعفوية في نفس الآن. بدا الأستاذ وزوجته مصعوقين، كما لو أنها تفوهت للتو بكلام ناب.

أعلنت الأستاذة فيرن: «لم تكن هناك كلاب أبدا في تاريخ هذه العائلة.»

خفضت مارغريت بصرها، ولاحظ بوسمان أن وجهها تضرج بحمرة من شدة الارتباك. كان يرغب في مساعدتها. كان يخشى أن يفقد برودة أعصابه وأن يعبر عن العنف الذي يفاجئ عادة لدى هذا الفتى ذا القامة والمنكبين الضخمين والعادات المتحفظة جدا.

«أنتم لا تحبون الكلاب، أليس كذلك؟»

Twitter: @ketab_n

أخذ الأستاذ فيرن وزوجته يتأملانه بصمت، كما لو أنهما لم يستوعبا سؤاله.

ثم غمغمت مارغريت: «كلب، لا شك أن ذلك سيعجب الأطفال.»

أجابت زوجة الأستاذ: «لا أظن ذلك. لن يحتمل أندري أن يحول كلب دون تركيزه على الرياضيات.»

اكتسى وجهها قناعا صارما، وقد أثار اهتمام بوسمان كيف أن هذا الوجه، بالشعر البني القصير والفكين القويين والجفنين المتثاقلين، يبدو رجوليا. بجانبها يبدو الأستاذ فيرن كما لو يمتلك شيئا هشا. هل السبب في ذلك يعود إلى شعره الأشقر الذي يميل إلى اللون الأصهب؟ أم سحنته الشاحبة؟ لاحظ بوسمان أيضا أن الأستاذة فيرن حينما تبتسم، فلا تقوم بذلك سوى بشفتيها. تبقى عينيها باردة.

قال الأستاذ فيرن بصوته العذب: «لندع مسألة الكلب جانبا.»

بالطبع، لندع ذلك جانبا، خمن بوسمان. في هذه الشقة الجرداء، وسط هذه الأسرة التي تولي منذ أجيال كثيرة عنايتها أساسا للقانون والقضاء وحيث الأطفال يتقدمون على أقرانهم في الثانوية بسنتين، لا مكان للكلاب. ما أن شعر بأن آل فيرن سيغادرون الصالة، حتى يدعونه هو ومارغريت بمفردهم كما في المساءات السابقة، حتى ارتأى بأن عليه أن يقوم بمحاولة جديدة.

«أود أن أستشيركم في موضوع ما.» وحتى يتشجع أكثر، ألقى بنظرة على الصورة حيث يبدوان كلاهما في ثيابهما السوداء.

Twitter: @ketab_n

هـل سـمعا صوتـه فعـلا؟ كان صوتـه خافتا جدا... اسـتأنف الحديث في الحال:

«لكنني لا أريد أن أشـغلكم الآن...يمكننا الحديث في مسـاء آخر...»

قال الأستاذ فيرن: «كما تشاء. أنا رهن إشارتك.»

غادر هو وزوجته الصالة، وقد انفرجت أسـاريرهما عن نفس الابتسامة الناعمة.

سألته مارغريت: «بشأن ماذا تريد نصيحتهما؟»

حـار فـي الجـواب. نعم، أية نصيحة؟ كانت فكرة اللجوء إلى الأستاذ وزوجته قد انبثقت في ذهنه بسبب تلك الصورة لهما وهما يرتديـان زي المحامـاة. ذات يـوم، دخل قاعـة قصر العدالة بخطى زائغـة، ولاحـظ الطريقـة المهيبة والمرنة فـي ذات الآن التي يخطر بهـا كل هـؤلاء الرجـال في زيهم الذي توشـي حاشـيته أحيانا قطع من الفرو. كما أنه وهو طفل، كانت قد أثارت انتباهه كثيرا صورة فتاة شـابة، تجلس على مقعد من مقاعد محكمة الجنايات، خلف واحد من أولائك الرجال في الزي الأسـود. كانت الصورة تحمل العبارات التالية: «إلى جانب المتهم، فالمدافع يسانده بكل صرامته وعطفه الأبوي...»

ترى أي جرم أو خطأ يشـعر هو، بوسـمان، بأنه اقترفه؟ كان نهب الحلم ذاته: يبدو أنه كان متواطئا في جريمة في غاية الخطورة، شريكا ثانويا، ومع أنه لم يتم تحديد هويته، لكنه يبقى شريكا، في جميـع الأحـوال، دون أن يـدري طبيعة هذه الجريمة. وكان تهديدا

Twitter: @ketab_n

مبطنا يقض مضجعه، يتوارى أحيانا فينساه، لكنه يعاود الظهور في حلمه، وحتى بعد استيقاظه، على نحو يضايقه.

أية نصائح وأية مساعدة كان ينشد الحصول عليها لدى الأستاذ فيرن وزوجته؟ ما أن غادر الشقة ذلك المساء حتى انفجر ضحكا. كان يوجد رفقة مارغريت في المصعد ـ مصعد ذو أبواب زجاجية يهبط بتؤدة كان يجلس على أرضيته ـ ولم يعد يتحكم في ضحكه الهستيري. انتقل ضحكه إلى مارغريت. أن يطلب من محاميين أن يتكفلا بالدفاع عنه! ضد ماذا؟ الحياة؟ تصور نفسه في وضع حرج قبالة الأستاذ فيرن والأستاذة سوزان فيرن، يجللهما الوقار، بينما هو يسرد عليهما وقائع حياته الشخصية، محاولا أن يشرح لهما شعورا بالذنب ظل يداخله منذ نعومة أظفاره دون أن يعلم سببا لماذا، وهذا الإحساس السيئ بالتحرك غالبا فوق رمال متحركة... بدءا، لم يسبق له أبدا أن كشف عن أسراره الشخصية لأي كان كما أنه لم يطلب أبدا مساعدة أيا كان. لا، إن ما شده لآل فيرن هو الثقة التامة التي يبديانها على، ما يبدو، إزاء صفاتهم الفكرية والأخلاقية، هذا الأمان الذاتي الذي يرغب عن طيب خاطر أن يمنحوه سره.

ذلك المساء، بقيت بوابة حدائق الأوبسيرفاتوار مفتوحة. جلس هو ومارغريت في أحد المقاعد. كان الهواء دافئا. يذكر أنها اشتغلت لدى الأستاذ وزوجته في شهر شباط وجزءا من شهر آذار. لكن الربيع كان دون شك قد حل باكرا تلك السنة وإلا لما استطاعا أن يجلسا مطولا في الكرسي. كان القمر بدرا. شاهدا الأضواء تنطفئ في نوافذ الأستاذ فيرن.

Twitter: @ketab_n

سألته: «إذن متى ستسألهم المشورة؟»

وهكذا انفجرا مرة أخرى في ضحك هستيري. كانا يتحدثان بصوت خافت لأنهما كانا يخشيان أن ينتبه أحد ما إلى وجودهما في الحديقة. في هذه الساعة المتأخرة، يكون الدخول دون شك ممنوعا على العموم. شرحت له مارغريت أنه حين وصولها إلى باريس وجدت نفسها في فندق، بالقرب من ساحة الإتوال. لم تكن تعرف أي أحد. خلال المساء، كانت تسير في الحي بمفردها. ثمة مكان أصغر حجما إلى حد ما من حدائق الأوبسيرفاتوار، ساحة ما يوجد بها تمثال وأشجار، وكانت تجلس هناك، في مقعد، كما الآن.

سأل بوسمان: «متى كان ذلك؟»

محطة قطار أنفاق بواسير. يالها من مصادفة...في تلك السنة، كان غالبا ما يقصد بواسير حوالي الساعة السابعة مساء.

أخبرته مارغريت: «كنت أقيم بشارع بولوي، فندق سيفي.»

كان من الممكن أن يلتقيا خلال تلك الفترة في الحي ـ شارع صغير كان بوسمان ينعطف نحوه يسارا، وكان يبعد قليلا عن مخرج محطة قطار الأنفاق. كان قد غادر مكتبة المطبوعات القديمة لسابليي حينما حل الليل. كان عليه أن يغير القطار في مونبارناس. بعد ذلك، كان الخط متصلا حتى بواسير.

كان يبحث عن شخص ليرقن له ما خطه في دفترين من نوع كلير لا فونتين بخطه الضيق، المليء بالتشطيبات. كان قد قرأ

Twitter: @ketab_n

فـي الإعلانـات الصغيرة لصحيفة بعنوان «البحث عن عمل»: كاتبة إدارة سابقة. لكل أعمال الرقانة. سيمون كورديي. 8 شارع بولوي. الزقاق 16. الرجاء الاتصال هاتفيا مسـاء ابتداء من السـاعة السـابعة مساء. باسي 04 63 .

لماذا الذهاب بعيدا، على الضفة الأخرى من نهر السين؟ منذ أن اكتشـفت أمـه ورجل الدين السـابق عنوانـه وجاءت لتطلب منه المال، بدأ الشك يخامره. كان الرجل قد نشر ديوانا شعريا في ريعان شبابه وقد تناهى إلى علمه بأن بوسمان بدأ هو الآخر يشغل نفسه بالكتابة. ذات يوم حينما التقيا لسوء الحظ في الشارع، أخذ يسخر منه ويطارده بتهكمه. هو، بوسمان، كاتب... لكنه لم يكن يملك أي تصور بشأن الأدب... الكثير من الأدعياء، القليل من المختارين... وافقت أمه على رأي الرجل بحركة من ذقنها تشي بالتعالي. ركض بوسـمان على طول شـارع السـين ليهرب منهما. غداة اليوم التالي، أرسـل لـه الرجـل إحدى قصائده القديمة حتـى يطلعه على ما كان قـادرا علـى القيـام بـه حينمـا كان فـي سـنه. كما أن ذلك سـيكون بالنسـبة له درسـا فيما يخص الأسـلوب. « من بين شـهور حزيران كلها / وحده الأكثر روعة الشهر المداري الأربعين/ خسر العظماء الحرب/ أما أنت فكنت تركض عبر الأرض اليباب وتدمي ركبك/ فتى طاهر وعنيف/ بعيدا عن صبايا القرويات الفاسـقات/ لم تكن السـماء أبدا بهذه الزرقة/ هناك على الشـارع تلمح مرور/ جندي على متن دبابة ألمانية/ شـعره الأشـقر يتوهج في الشمس/ أخوك/ في الصبا.»

Twitter: @ketab_n

منـذ ذلـك الحيـن، كان يراوده حلم حيث تتراءى أمه ورجل الدين السـابق يقتحمان عليه الغرفة دون أن يقوى على الدفاع عن نفسـه. كانـت تنقـب في جيوب ملابسـه بحثا عن ورقـة نقدية. أما الآخـر فقـد عثـر على دفترين من نوع كلير لا فونتين على المائدة. ألقى عليهما نظرة ينطق منها الشر وأخذ يفك رموزها بعناية، بتكلف كبيـر، وتقاسـيم صارمـة، كمـا لـو كان واحـدا من محققـي محاكم التفتيش يدمر مؤلفا فاسقا. بسبب هذا الحلم، كان بوسمان يرغب في أخذ الاحتياطات. على الأقل ستكون النصوص المطبوعة في مأمن من هذين الشخصين. على أرض محايدة.

خلال المناسـبة الأولى التي دق فيها جرس باب الشـقة رقم 8 بشـارع بولـوي، كان يحمـل فـي مظـروف كبيـر حوالي عشـرين صفحـة كان قـد أعـاد كتابتهـا. فتحت له الباب امرأة شـقراء كانت في حوالي عقدها الخامس، عينيها خضراوان، وشكلها أنيق. كانت الصالة جرداء، دون أن يكون هناك ولو أي أثاث، باستثناء مشرب من الخشـب الناصع انتصب بين نافذتين وكرسـي عال دون مسند. دعته للجلوس على الكرسي بينما بقيت هي واقفة خلف المشرب. حذرتـه فـي الحـال بأنها لن تتمكن من رقن سـوى عشـر صفحات في الأسـبوع. أخبرها بوسـمان بأن هذا ليس ذا أهمية وبأن الأمور ستكون أفضل حالا على هذا النحو: سيخصص المزيد من الوقت للمراجعة.

«وما هو موضوع الأوراق؟»

كانت قد وضعت كأسـين على المشـرب وسـكبت الويسكي.

Twitter: @ketab_n

لم يجرؤ بوسمان على رفض دعوتها.

«الأمر يتعلق برواية.»

«آه...أنت روائي. أليس كذلك؟»

لاذ بالصمت. لو أجابها بنعم، لراوده الإحساس بأنه واحد من عامة الشعب يقدم نفسه في إهاب نبيل مزور أو شخص محتال، شأنه شأن أولائك الذين يقرعون أبواب الشقق ويعدون بموسوعات وهمية، شريطة أن يقدم لهم المرء عربونا مسبقا.

لمدة حوالي ستة أشهر، كان يتردد بانتظام على سيمون كورديي حتى يسلمها صفحات جديدة ويستلم الصفحات التي قامت برقنها. كان قد طلب منها أن تحتفظ بالمسودة من باب الاحتياط.

«هل تخشى من شيء ما؟»

يذكر جيدا هذا السؤال الذي طرحته عليه ذات مساء، وقد نطقت مقلتاها بنظرة تفيض ذهولا وعطفا. خلال هذه الأثناء، لابد أن الخشية كانت بادية على محياه، في طريقة كلامه، في سيره وحتى في طريقة جلوسه. كان دائما يجلس على حاشية الكراسي والأرائك، على ورك واحد، كما لو يشعر بأنه لا يوجد فعلا في مكانه الطبيعي وكان على أهبة الفرار. كان هذا الموقف يثير المفاجأة لدى فتى يتميز بطول القامة ويزن مائة كيلوغرام. لا يفتأ الأشخاص يخبرونه: «لا تبدو مرتاحا في جلستك...استرخي... خذ راحتك...» لكن الأمر كان أكبر منه. كان يبدو كما لو أنه كان يعتذر. عماذا بالضبط؟ كان أحيانا يطرح على نفسه السؤال حينما يسير في الشارع. أن يعتذر على ماذا؟ إذن؟ على الحياة؟

Twitter: @ketab_n

ولـم يكـن يسـتطيع أن يحـول دون أن ينفجـر ضحكا مجلجلا مما كان يثير انتباه المارة.

ومع ذلك، فخلال المساءات التي كان يتردد فيها على سيمون كورديـي، فقـد كان يـردد في داخله بأن هذه هي المرة الأولى التي لا يخامره فيها شعور بالاختناق ولم يكن فيها حذرا. عند مغادرته لمحطة قطار الأنفاق ببواسـير، لم يعد عرضة للقاء أمه والشـخص الذي يرافقها. كان بعيدا جدا، في مدينة أخرى، يكاد يكون في حياة أخـرى. لمـاذا فرضـت عليه الحيـاة، على وجه التحديد، مثل هذه الدمى التي تتصور بأنها تمتلك حقوقا عليه؟ لكن أليس الشـخص الأكثر حماية، الأكثر رعاية من طرف القدر، تحت رحمة شـخص يبتزه؟ كان يردد ذلك على مسـامعه حتى يشـعر بالعزاء. ثمة الكثير من هذه القصص في الروايات البوليسية.

كان ذلـك خـلال شـهري أيلـول وتشـرين الأول. نعـم، كان يستنشق هواء خفيفا للمرة الأولى في حياته. لا تزال الشمس عالقة بذيل السـماء حينما غادر منشـورات سـابليي. صيف هندي حيث يقال بشأنه بأنه يمتد لأشهر وأشهر. ربما يمتد إلى الأبد.

قبـل أن يصعـد إلى شـقة سـيمون كورديـي، كان يقصد مقهى يوجـد فـي المبنـى المجـاور، فـي زاويـة شـارع لا بيـروس، ليقوم بمراجعـة الصفحات التي سيسـلمها لهـا، وخصوصا الكلمات غير المقـروءة. كانـت تتخلـل الصفحـات التـي تقـوم سـيمون كورديي برقنهـا علامـات غريبة وقد كان بوسـمان يتسـاءل إذا ما كان الأمر يتعلق بأبجدية سلافية أو اسكندنافية. أو ببساطة لا يعدو أن يكون

Twitter: @ketab_n

للأمر علاقة بآلة طباعة أجنبية، حيث لم تكن العلامات معروفة في فرنسا. لم يجرؤ على طرح السؤال عليها. كان يفضل أن تبقى الأمور على حالها. كان يخبر نفسه بأنه يجب المحافظة على هذه العلامات كما هي في حالة إذا ما تمكن من نشر هذا المؤلف. فهذا يماثل النص ويعير طابعا غرائبيا كان بالنسبة له ضروريا. على أي، حتى إذا ما حاول التعبير عن ذاته في لغة فرنسية أكثر شفافية، فقد كان، هو الآخر، شأنه شأن آلة سيمون كورديي، من أصول أجنبية.

حينما يغادر شقتها، يقوم من جديد بالمراجعة في المقهى، هذه المرة على الصفحات المرقونة. لديه المساء برمته. كان يفضل أن يبقى في الحي. كان يبدو له أنه بلغ منعطفا في حياته، أو بالأحرى حدا سينطلق منه نحو المستقبل. للمرة الأولى في حياته، أخذت تراوده كلمة المستقبل، وكلمة أخرى هي الأفق. خلال هذه المساءات، كانت الشوارع الموحشة والهادئة للحي خطوط هروب تفضي كلها إلى المستقبل والأفق.

كان يتردد في استقلال قطار الأنفاق ليقوم برحلة العودة حتى المقاطعة الرابعة عشر وغرفته. كان كل هذا خلاصة حياته السابقة، ثياب بالية سينضوها عنه من يوم لآخر، زوج من الأحذية الرياضية المستعملة. على طول شارع لا بيروس حيث تبدو كل البنايات مهجورة ـ ولكن لا، بدا له ضوء يشع في الأعلى في نافذة في الطابق الخامس، ربما هناك شخص ما ينتظره منذ مدة ـ يشعر بأن فقدان الذاكرة قد تملكه. كان قد نسي كل ما يتعلق بطفولته وبمرحلة المراهقة. لقد تخلص بغثة من عبء ثقيل.

Twitter: @ketab_n

بعد مرور عشرين سنة، قادته خطاه مرة أخرى إلى الحي ذاته. على الرصيف، كان يلوح لسيارات الأجرة، لكنها كانت كلها مشغولة. هكذا قرر أن يسير على قدميه. تذكر شقة سيمون كورديي، الصفحات المرقونة بعلاماتها الغريبة.

تساءل إذا ما ما كانت سيمون كورديي قد قضت نحبها. إذن لا حاجة للاتصال بالمقيمين الجدد في الشقة الفارغة. لربما قد تم اكتشاف الصفحات المكتوبة بخط يده، خلف المشرب، والتي كان قد طلب منها الاحتفاظ بها في السابق.

انعطف إلى شارع بولوي. حل الليل، خلال الساعة ذاتها حينما كان يغادر مخرج محطة قطار الأنفاق، وفي الفصل ذاته، كما لو كان يسير خلال الصيف الهندي ذاته.

كان قد وصل أمام فندق سيفيي الذي يحتل إحدى البنايات الأولى للشارع، تحديدا قبل المبنى الذي توجد به شقة سيمون كورديي. كان الباب الزجاجي مفتوحا، نور قليل يملأ الممر بضوء أبيض. خلال هذا الخريف، كلما ذهب لاستلام الصفحات المرقونة، كان يمر، كما الآن، أمام هذا الفندق. ذات مساء، فكر بأن يستأجر غرفة وأن لا يعود أبدا إلى الضفة الأخرى. راودته عبارة: قطع الجسور.

لماذا لم ألتق بمارغريت خلال هذه الفترة؟ لماذا حدث ذلك بعد مرور بضعة شهور؟ لا شك أن سبلنا تقاطعت، أو قد نكون ترددنا على المقهى الموجود في الزاوية، دون أن يلمح أحدنا الآخر. وقف متجمدا أمام باب الفندق. خلال كل هذا الوقت،

Twitter: @ketab_n

تـرك العنـان للأحداث اليومية للحياة تحمله أينما شـاءت، أولائك الذيـن لا يميزونـك عـن أغلبية أشـباهك وتختلـط معالمهم خلال تلـك الأثنـاء فـي غمام ما، مجرى رتيب، ما نلقبه مجرى الأشـياء. كان لديـه الإحسـاس أنـه صحا فجأة من هـذا الخمول. كان يكفي دخول الفندق، تتبع الممر حتى مكتب الاسـتقبالات والسـؤال عن رقـم غرفـة مارغريـت. لا بد أن تكون هناك موجات عالقة، صدى لمرورها في هذا الفندق وفي الشوارع المجاورة.

Twitter: @ketab_n

كانت قد وصلت من سويسرا إلى محطة القطارات بليون حوالي الساعة السابعة مساء. سارت حتى طوابير سيارات الأجرة المصطفة وهي تحمل الحقيبة المصنوعة من الكتان والجلد، هدية باغيريان لها. حينما سألها السائق عن العنوان، تلعثمت في اسم الشارع. أخبرته شارع بيلو. لا يعرف السائق أي شارع بهذا الاسم. بحث في خارطته. هناك شارع يدعى بيلو بالقرب من حوض لا فيليت، غير أن باغيريان كان قد أخبرها: «بالقرب من النجمة.» لحسن الحظ أثار اسم فندق سيفينيي خاطرا ما لدى السائق. نعم بالطبع، شارع بيلوي.

طلبوا منها الصعود إلى الطابق الأخير، الغرفة رقم 52. عشية سفرها، في سويسرا، قضت ليلة طويلة دون نوم في شقة باغيريان. وصلت منهكة بحيث لم تستطع أن تخرج ثيابها من الحقيبة. تمددت في ثيابها الكاملة على السرير وغطت في النوم.

حينما استيقظت، في هذه العتمة، شعرت بالدوران كما لو أنها وقعت في البحر. لكنها تعرفت على الحقيبة المصنوعة من الكتان والجلد، هناك، بالقرب منها، ثم استعادت ثقتها. راودها حلم بأنها كانت تسافر على متن سفينة كانت الأمواج تلطمها بعنف بحيث أنها كانت عرضة للوقوع كل مرة من سريرها.

رنين هاتف. و هي تتحسس العتمة أشعلت المصباح الذي يوجد

Twitter: @ketab_n

على الطاولة التي توجد على رأس السرير. أخذت السماعة. كان صوت باغريان بعيدا. مجرد أزيز. بعد ذلك صار الصوت واضحا، كما لو أنه يتكلم من الغرفة المجاورة. هل استقرت جيدا؟ قدم لها إرشادات ذات طبيعة عملية: بإمكانها أن تتناول الطعام بالفندق أو بالمقهى الموجود في زاوية الشارع؛ الأفضل لها أن تبقى إلى متى تشاء في هذا الفندق حتى تجد عملا، وحتى بعد ذلك؛ إذا كانت بحاجة إلى المال، عليها أن تتوجه إلى مصرف حدد لها عنوانه. كانت تعلم جيدا بأنها لن تقوم بذلك أبدا. فقد رفضت المظروف الذي يحتوي على المال حينما رافقها إلى محطة لوزان للقطارات. لم تقبل سوى أجرها كمربية للأطفال. مربية: كلمة كان باغيريان سيستعملها. كان هو ذاته يسخر من بعض العبارات القديمة التي كان يعيدها المرة تلو المرة وكانت تثير اهتمام مارغريت لو كوز. ذات يوم، كانت قد هنأته على طريقته الأنيقة في الحديث. فسر لها بأنه نشأ بمدارس فرنسية في مصر على يد أساتذة أكثر حرصا على مبنى ومعجم اللغة مما كان عليه الأمر في باريس. حينما أعادت السماعة إلى مكانها، تساءلت إذا ما كان باغيريان سيتصل بها مرة أخرى. ربما كان ذلك آخر عهدها به. إذن، ستكون وحيدة في غرفة الفندق هذه، وسط مدينة مجهولة، دون أن تعلم سبب ذلك.

أطفأت المصباح الذي يوجد على رأس السرير. للحين، كانت تفضل العتمة. مرة أخرى، ثمة قطيعة أخرى في حياتها، لكنها لم تكن تشعر بالندم، أو بأي خشية. لم تكن هذه هي المرة الأولى... وكان الأمر يجري دائما على هذا النحو: كانت تصل إلى محطة

Twitter: @ketab_n

قطارات دون أن يكون هناك من ينتظرها ودون أن تعرف أسماء الشوارع. لم تعد بتاتا إلى نقطة الانطلاق. وعلى أي، لا توجد أبدا نقطة انطلاق، كما هو الشأن بالنسبة لأولائك الأشخاص الذين يخبرونك بأنهم ينتمون إلى تلك الضواحي أو القرى وبأنهم سيعودون إليها من وقت لآخر. لم تعد أبدا إلى مكان كانت قد أقامت فيه في السابق. مثلا، لن تعود أبدا إلى سويسرا، البلد الذي بدا لها ملجأ آمنا حينما استقلت حافلة من المحطة الطرقية بأنيسي وكانت تخشى من أن يتم اعتقالها عند الحدود.

كان يساورها شعور بالخفة كلما كان عليها أن تغادر، وبعد كل انكسار من انكساراتها كانت على يقين بأن الحياة ستنتصر. لم تكن تعلم إذا ما كانت ستبقى لمدة أطول في باريس. كل شيء رهن الظروف. الشيء الإيجابي الوحيد هو أنه بإمكان المرء التملص ببساطة من شخص في مدينة كبيرة، وسيجد بوبافال صعوبة في العثور عليها في باريس أكثر مما كان عليه الحال في سويسرا. كانت قد أخبرت باغيريان بأنها تبحث عن عمل ـ عمل سكرتيرة مادامت تتكلم اللغة الألمانية ـ وخصوصا في مكاتب حيث يصعب التعرف عليها ضمن الآخرين. لقد بدا مندهشا بل وقلقا بشكل غامض. ولماذا لا تشتغل كمربية مرة أخرى؟ لم ترغب في مجادلته. نعم مربية، شريطة أن تجد عائلة حيث ستكون في مأمن.

خلال الزوال الذي تقدمت فيه بطلبها لوكالة ستيوارت، ضاحية سانت هونوري، انتظرت طويلا قبل أن تحظى بلقاء شخص أشقر في حوالي الخمسين من عمره ذي عينين زرقاوين صغيرتين.

Twitter: @ketab_n

جلس إلى مكتبه وأخذ يتطلع إليها للحظة بنظرة متفحصة وباردة كما لو كان وكيلا مدلسا. بقيت واقفة، يملأها الضيق. لعل هذا الشخص سيطلب منها بصوت جاف أن تنزع ثيابها. لكنه أشار إلى مقعد جلدي، يوجد قبالته.

«اسمك ولقبك؟»

أخذ ملفا ونزع الغطاء عن قلمه.

«مارغريت لو كوز.»

عادة، يتم إخبارها: في كلمتين؟ أو: هل أنت بريتونية[1]. لكن الأشقر كتب اسمها على الملف دون أن يتفوه بأي شيء آخر.

«من مواليد...؟»

في هذه اللحظة بالذات تستأثر باهتمام محاورها وتقرأ المفاجأة أو الفضول أو حتى الريبة على المحيا. لشد ما تمنت أن تكون من مواليد فيلنوف سانت جورج أو نيفير...

«برلين، رينيكندورف.»

«هل يمكن أن تملي علي الاسم؟»

لم يخطئ. يبدو أن الأمور كانت عادية بالنسبة له. وهكذا أملت عليه كلمة رينيكندورف.

«هل أنت من أصول ألمانية؟»

«لا، فرنسية.»

نعم، الأفضل هو الإجابة على هذا النحو، بشكل مقتضب.

(1) نسبة إلى منطقة بريتانيا الفرنسية. (م)

Twitter: @ketab_n

«أين تقيمين؟»

«فندق سيفينيي، رقم 8 شارع بيلوي.»

«تقيمين في الفندق؟»

شعرت بأنه ألقى عليها نظرة ريبة. أرغمت نفسها على الحديث بنبرة لامبالاة.

«نعم، لكن فقط مؤقتا.»

واصل ملأ الملف وذلك بالكتابة بتمهل.

«شارع بيلوي، المقاطعة السادسة عشر؟»

«نعم.»

كانت تخشى أن يسألها كيف تدفع إيجار الفندق. إنه باغيريان الذي يتحمل ذلك. كان قد أخبرها بأن بإمكانها أن تبقى في الفندق متى شاءت، لكنها كانت على عجلة للحصول على عمل حتى تستقل عنه.

«وهل لديك شهادات؟»

رفع رأسه عن الملف ومن جديد تطلع إليها بتلك النظرة المفعمة بالانتباه. لم تكن هذه النظرة تنطوي على أي شر. فقط برودة حِرفية.

«أقصد، هل سبق لك أن اشتغلت كخادمة بيت؟»

«كنت مربية في سويسرا.»

نطقت هذه الكلمات بنبرة جافة، كما لو بهذه الفظاظة ترغب في تحدي هذا السمسار المدلس ذي العينين الزرقاوين. هز رأسه بوقار.

Twitter: @ketab_n

«في سويسرا...هذه شهادة جيدة. هل كنت مسئولة عن العديد من الأطفال؟»

«اثنان.»

«وهل يمكنك أن تعطيني اسم مشغليك هناك؟»

«السيد باغيريان.»

اندهشت لأنه لم يطلب منها أن تملي عليه الاسم. وهو يكتبه على الملف، واصل هز رأسه.

«كان لدينا زبون اسمه السيد باغيريان منذ سنوات خلت... انتظري...سأتحقق من الأمر...»

تحرك على كرسيه، نهض وفتح درجا في خزانة معدنية حيث تمكن في الأخير من استخراج ملف.

«بالضبط...السيد ميشيل باغيريان...رقم 37 شارع لا بيروس... كان قد اتصل بنا مرتين...»

لم يخبرها أبدا بأنه كان يقيم في باريس.

«كان ذلك أيضا من أجل مربيات...»

كان ينظر الآن إليها بشيء من الاحترام.

«والسيد باغيريان، هل يقطن الآن في سويسرا؟»

لعله كان يسعى أن يستدرجها إلى حديث اجتماعي كذلك الذي كانت تصغي له وهي شاردة الذهن بين سيدتين عجوزتين ذات زوال بينما كانت هي والأطفال ينتظرون السيد باغيريان في بهو فندق أوشي.

«نعم، إنه يقطن في سويسرا.»

Twitter: @ketab_n

كان يرغب دون شك في أن تمده بالمزيد من التفاصيل. لكنها لاذت بالصمت.

أخبرها وهو يرافقها حتى باب الوكالة: «سنحاول أن نختار لك مشغلا يكون في مستوى السيد باغيريان.» ثم واصل: «سيكون لطفا منك إذا تفضلت بإرسال صورة تعريفية حتى نرفقها بالملف وشهادة موقعة من طرف السيد باغيريان.»

حينما فتح الباب، استدار نحوها.

«عليك بالصبر. سنتصل بك.»

كانت غالبا ما تلازم الحي. خلال الليالي الأولى، كانت تجد صعوبة في النوم. أخيرا، لم تعد تتمكن من النوم حتى الساعة الثالثة صباحا. على الساعة السابعة، كانت تستيقظ وكانت على عجل لمغادرة الغرفة. كانت تذهب لاقتناء الجرائد بساحة النجمة، ثم تعود القهقرى حتى المقهى الذي يوجد في زاوية شارع لا بيروس. هناك، كانت تقرأ الإعلانات الصغيرة الذي تحمل عنوان: «عروض عمل.» كانت الكلمات الأخيرة للأشقر صاحب وكالة ستيوارت: «عليك بالصبر، سنتصل بك.» لا تدعو للتفاؤل. من الأفضل لها أن لا تكون متفائلة كثيرا بشأنها. كان باغيريان يتصل بها دائما حوالي السابعة مساء. هل تشعر بالراحة في فندق سيفينيي؟ لا، لم تذهب بعد إلى المصرف. لكن لديها ما يكفي من المال. لم تكن لديها الرغبة في أن تطلب منه الشهادة من أجل وكالة ستيوارت. «أشهد، أنا الموقع أسفله، ميشيل باغيريان، أن الآنسة مارغريت لو كوز

Twitter: @ketab_n

منحتني كل الرضا...» شيء ما يقض مضجعها بخصوص هذه الشهادات إن لم تكن تبعث في نفسها الأسى. لاشك أنه كان قد كتب شواهد مماثلة ل«مربيات» أخريات.» من يعلم؟ لقد وضع قائمة في مذكرة لكل «المربيات» اللواتي ضاجعهن، وأسفل هذه القائمة يوجد اسمها. استشاطت غضبا لأنها كانت تفكر على هذا النحو. لاشك أن هذا التوصيف لا يليق بشخص يحاول أن يمد لها يد العون. قليلون هم الأشخاص الذين يبدون استعدادا لتقديم يد العون، للإصغاء إليك أو، بالأحرى، فهمك...على الهاتف، كانت إجاباتها لا تتعدى كلمتي نعم أو لا، لم تكن تعرف ماذا تقول. على أي، كان صوته ينأى شيئا فشيئا ويغطيه الأزيز. ربما لم يعد يقيم في باريس وكان يتصل بها من البرازيل حيث كان عليه أن يذهب رفقة أطفاله. لم تكلف نفسها عناء السؤال عن موعد سفره أو إذا ما كان قد غادر سويسرا. هو الآخر لم ينبس بشيء. لاشك أنه يظن أن ذلك يوجد خارج دائرة انشغالاتها، بسبب جفائها على الهاتف. أن يكون في سويسرا أو البرازيل، فسيصيبه التعب والملل في الأخير ولن يعاود الاتصال بها مرة أخرى. وستكون الأمور أفضل على هذا النحو.

كانت قد بلغت العشرين ربيعا في بداية الشهر. لكنها لم تكلف نفسها عناء إخبار باغيريان بذلك. لم تكن من عادتها الاحتفال بأعياد ميلادها. يفترض الاحتفال وجود عائلة، أصدقاء أوفياء، طريقا تتخلله حدود كيلومترية وعلى طوله يمكننا التوقف قبل استئناف المسير بخطى متوازنة. لكنها هي، على العكس، كانت

Twitter: @ketab_n

تتقدم في الحياة بوثبات مضطربة، بانقطاعات، وكل مرة كانت تنطلق من الصفر. إذن أعياد الميلاد...كان يخامرها الإحساس بأنها كانت قد حيت الكثير من الحيوات.

ومع ذلك فهي تذكر بلوغها سن العشرين. عشية ذلك، كان باغيريان قد عهد لها بسيارته حتى ترافق الطفلين إلى مدرسة ميريمونت، على شارع مونترو، حوالي العشرة كيلومترات. كان الأطفال يرابطون هناك لثلاثة أيام في الأسبوع، وكانت تجد عنتا في تخيل هذا البيت المحاط بحديقة كبيرة على أنه مدرسة. مع أنها كانت قد زارت قاعات الدرس وتجولت في غرفة الأكل الصغيرة التي توجد في الطابق الأرضي. كانت تعود لاصطحابهم إلى المنزل يوم الأربعاء مساء ثم تعود بهم إلى المدرسة يوم الاثنين. أخبرها باغيريان بأنه من الأفضل لهم أن يقيموا مع أولاد وبنات في سنهم بدل أن يكونوا دوما وحيدين مع أبيهم. إجمالا، كانت تخصص فقط منتصف الوقت للاهتمام بهم. هل هناك امرأة ما تدعى السيدة باغيريان؟ شعرت مارغريت لو كوز بأنه لا يجب التطرق إلى الموضوع. هل ماتت أم أنها غادرت منزل الزوجية؟

خلال رحلة العودة، كانت تقود على طول جادة أوشي. توقفت أمام إشارة الضوء الأحمر عند مفترق الطرق، هناك، حيث ينتصب فندق روايال سافوي بأبراجه القروسطية التي كانت توحي إلى بياض الثلج والأقزام السبعة. شعرت بانقباض. كان بويافال هناك، على الرصيف، وكان يهم بقطع الطريق. أرادت أن تشيح بنظرها عنه، لكنها لم تستطع أن تفصل نظرها عن هذا الرجل

Twitter: @ketab_n

الـذي يرتدي معطفا أسـودا ضيقـا. حاولت أن تكون أكثر عقلانية: إنهـا فـي مأمـن بداخل السـيارة. لكنها اعتبرت أن مجـرد التحديق فيه سـيثير انتباهه. بالفعل، في اللحظة التي كان يقطع فيها الجادة وكان يـود أن يمـر أمـام السـيارة، لمحهـا. كشـر بابتسـامة تنم عن المفاجأة. تظاهرت بأنها لم تتعرف عليه. كان ينتصب أمام السيارة، وكانت على عجلة أن تتغير شـارة المرور. كالعادة، الوجه الضامر ذو الوجنتان النحيلتان، الشـعر الأسـود المقصوص طويلا، العينان الرماديتان اللتان تفيضان قسوة، هيأة قدت في ملابس على قياسه. منـذ أن كانـت فـي سويسـرا، تمكنت آخر المطـاف أن تنفض عنها ذكـراه، والآن وهـو يقـف منتصبا، هنا، بالقـرب تماما منها، بدا لها مزعجـا أكثـر. كان عليهـا بالأحرى أن تقول: منفرا أكثر. نظن، مع خفة سـنوات الشـباب، أننا سـنقوى على الانفلات دون خسـارات والتمكـن مـن التخلـص مـن لعنة قديمة، بدعـوى أن المرء كان قد عـاش بضعة أسـابيع من السـكينة واللامبالاة فـي بلد محايد، على حافة بحيرة مشمسة. لكن بعد ذلك تعود الأمور إلى نصابها. لا، لا يمكن التخلص بهذه السـهولة. في اللحظة التي تغيرت فيها إشـارة المرور، كانت ستسحقه دون أدنى حس بالندم لو كانت على يقين بأنها ستنجو بفعلتها دون عقاب. اقترب منها وربت بقبضة يده على غطاء السيارة. انحنى كما لو أراد أن يلصق وجهه بالزجاج. لم تكن الابتسـامة سـوى تكشـيرة. اختنقت. انطلقت بغثة. بعد أن ابتعدت، أنزلت زجاج النافذة لتستنشـق الهواء الحر. شـعرت قليلا بالغثيان. لم تنعطف يسارا، على طريق بوريفاج، لكنها واصلت، إلى الأمام.

Twitter: @ketab_n

شعرت بتحسن حينما وصلت حافة البحيرة. على قارعة المنتزه العريضة، كان سائحون قد خرجوا من سيارة يسيرون جماعة، بهوادة ورفق. كان الرجل الذي يبدو أنه دليلهم يشير هناك إلى ضفاف فرنسا. خلال الأيام الأولى، كانت هي الأخرى تنظر، من شرفة شقة باغيريان، إلى الجهة الأخرى من البحيرة وكانت تفكر أن بويافال لا يبعد كثيرا. كانت تتصوره وقد رصد مكانها واستقل قاربا من القوارب التي تنتقل ما بين إيفيان ولوزان. كانت تتوقع هي الأخرى الوصول إلى سويسرا بواسطة إحدى هذه القوارب. كانت تردد في داخلها بأنها ستتمكن بسهولة من عبور الحدود. وعلى أي، هل توجد حدود على هذه البحيرة؟ لماذا كانت تخشى من أن يتم اعتقالها على الحدود؟ وبعد أن نفد صبرها، صعدت الحافلة، في المحطة الطرقية لأنيسي. سيكون الأمر على هذا النحو أسرع. هيا لنضع حدا لهذا الموضوع إلى الأبد.

قامت بنصف انعطافة، سلكت جادة أوشي وركنت السيارة في الشارع بدل المرآب. حينما فتحت البوابة، تحسرت لأنها لا تملك مفتاحا لإغلاقها دونها. كانت بمفرها في الشقة. لن يعود باغريان من مكتبه حتى حوالي الخامسة مساء.

جلست على الأريكة الموجودة في الصالة. هل ستتحلى بالصبر والشجاعة لانتظار عودته، بعد أن استوطن الذعر بحيرة الطمأنينة المستكنة؟ ركبها الجزع لفكرة أن يكون بويافال قد عرف عنوانها. ولكن لا، لقد كان هناك سبب آخر لوجوده هنا. كيف كان بإمكانه معرفة أنها توجد في سويسرا؟ اللهم إذا كان قد التقط

Twitter: @ketab_n

الحديث الذي جرى في شهر نيسان، في أنيسي، في بهو فندق انجلترا، بينها وبين هذا الشخص الأسمر الذي كان في حوالي العقد الخامس من عمره، بالأحرى رجل وسيم، والذي أسر لها بأنه يبحث عن فتاة شابة لتعتني بأطفاله... كان قد ترك لها عنوانه ورقم هاتفه في حالة إذا أثار العرض اهتمامها. لم يكن له بالتأكيد أي أطفال، كان فقط يرغب في قضاء المساء أو الليل معها. لكنه لم يلح كثيرا حينما أخبرته بأن لديها موعدا. جاء البواب ليبحث عنها ويرافقها إلى مكتب حيث تم إخبارها بأنه لا توجد فرص عمل في فندق انجلترا. عادت إلى البهو، لكن الشخص كان قد اختفى. على طرف الورقة، كان قد كتب: ميشيل باغريان، رقم 5 طريق بوريفاج. لوزان. رقم الهاتف: 320.12.51.

كانت إحدى النوافذ الضخمة مشرعة قليلا. تسللت إلى الشرفة واتكأت على السياج. في الأسفل، طريق بوريفاج، كان الشارع الصغير الذي يفضي إلى فندق يحمل نفس الاسم، مقفرا. كانت قد ركنت السيارة مباشرة أمام المبنى. قد يتعرف عليها ويسجل رقم اللوحة. كان المكان يهجع في الهدوء، بينما تملأ أشعة الشمس الطريق حيث تنداح همهمة الأشجار. ما أوسع الشقة بين هذا الشارع الهادئ ومظهر بويافال، المعطف الأسود الذي يضيق عليه، الوجه ذو السحنة الضامرة، اليدان كما لو كانتا مطرقتان معلقتان على هذا الجسد الأكثر ضمورا... لا، يستحيل تصوره في هذا الشارع. لقد كانت عرضة للهلوسة منذ قليل، كما يحدث عادة في تلك الأحلام المرعبة حيث تعاود مخاوف الطفولة

Twitter: @ketab_n

الظهور لتتسبب في تعذيبك. من جديد، مكان النوم في مدرسة داخلية أو في منزل للتأديب. حينما تستيقظ، يتلاشى كل شيء وتشعر بالراحة بحيث تنفجر ضحكا.

لكنها الآن هنا، في هذه الصالة، لم تكن تراودها الرغبة في الضحك. لا يمكنها أن تنفض عنها ذكراه إلى الأبد. طوال حياتها، لن تتمكن من الانفكاك من هذا الشخص ذو السحنة الهزيلة واليدان الضخمتان الذي سيلاحقها دون هوادة في الشوارع وسيبقى في وضع حراسة أمام كل مبنى تدخله. وستكون هذه المباني ذات المخارج المزدوجة دون جدوى...و لكن لا، لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر إلى الأبد. سينتهي به الأمر إلى قتلها. في أنيسي ، كان رواد مقهى المحطة يرددون بأنه كان يحمل منذ سن الثامنة عشر مسدسا وضعه في غمد من الجلد الرمادي. ومن مظاهر التأنق لديه، حسب أصدقائه القدامى، أنه كان يضع منديلا حريريا حول العنق ويرتدي بدلة طيار قصيرة جدا. أو ستقتله كما يتم سحق حشرة، وهي تأمل بأن تحظى بظروف تخفيف. لم تكن كل هذه الأشياء منطقية، هزت رأسها. كانت تود الحديث إلى باغريان على وجه السرعة. لم تكن تعرف رقم هاتف مكتبه. لماذا لا تلتحق به حالا، هناك، بشارع غران شين؟ لعله غادر المكتب لتناول الغداء. كانت تخشى أن تصادف مرة أخرى بويافال في وسط المدينة. من الأفضل أن تنتظر هنا.

كانت قد قررت أن تخبر باغريان بكل شيء. لا يوجد بد من ذلك، يجب تحذيره. قد يبدو الآخر عنيفا. كانت تذرع الغرفة جيئة

Twitter: @ketab_n

وذهابا وكانت تسعى عبثا لإيجاد الكلمات المناسبة. كيف يمكنها أن تفسر له بأنه لا يوجد ما يربطها بهذا الشخص؟ هو فقط يضمر لها الازدراء واللامبالاة. ومع ذلك، فقد كان عنيدا، كما لو كان له حقوقا عليها. ذات مساء وهو يلاحقها من شارع روايال إلى شارع أنيسي، استدارت لتواجهه وسألته بنبرة جافة عن سبب إصراره في ملاحقتها. فغر فاه عن ابتسامة بليدة لابد أنها عادة لديه. غير أن نظرته بقيت صارمة، كما لو يضمر لها البغضاء.

من جديد مالت على الشرفة. لا أحد في الشارع. كانت تستعجل وصول باغريان. ثمة ساعة أخرى قبل وصوله. كانت بالفعل ترغب أن يعود بمفرده دون أن يكون برفقة تلك التي تلقبها «السكرتيرة» أو الأخرى، التي لقبتها ب «النرويجية.» على ما يبدو، كانت النرويجية هي التي تقضي غالبا الليل رفقة باغريان. هل كانت فعلا نرويجية؟ كانت لكنتها اسكندنافية إلى حد ما. شقراء ذات عينان زرقاوان، الأكثر لطفا بين الاثنتين. كانت الأخرى، «السكرتيرة،» سمراء ذات شعر قصير، باردة جدا وبالكاد توجه لها الكلام. نعم، سيكون كل شيء على ما يرام حينما يعود باغريان. استعادت إحساسها خلال اليوم الذي التقت به في أنيسي، ببهو فندق انجلترا. حينما علمت بأنه لا توجد فرص للعمل في الفندق، شعرت باليأس. كانت السماء منسولة خيوطا من مطر بشارع رويال، ولم تكن تراودها الرغبة في الاحتماء منه. لعل المخرج الوحيد بالنسبة لها، كما قدرت، يكمن في لقاء بويافال الذي سيتعقبها وسيقترح عليها أن تشرب كأسا في الحانة وهو

Twitter: @ketab_n

يتطلع إليها بنظره القاسي. سترفض كما هو ديدنها وسيواصل هو ملاحقتها على طول جادة ألبينيي وجدران مربط الخيل. سيتسمر أمام المبنى في انتظار خروجها. بعد مرور ساعة، سيفقد الأمل. من نافذتها، سترمق هيئته في قميص رياضي من الجلد القصير جدا وهو يحث الخطى تحث المطر. لكن نهاية هذا الزوال، لم يظهر أي أثر لبويافال. حينما وصلت تحت القناطر، أخرجت من جيب واقيتها الشتوية الورقة التي كان الشخص الأسمر قد دون فيها عنوانه منذ لحظات. كانت ترغب أن تتصل به فورا، لكنها قدرت أن عليها التريث على الأقل حتى الغد حتى يكون في منزله، في لوزان. لماذا الانتظار حتى الغد؟ بإمكانها أن تعود على أعقابها. لعله لا يزال في فندق انجلترا. نعم، لقد كان هذا الشخص أملها الوحيد. والآن، في صالة الشقة، راودها الشعور ذاته من فقدان الصبر. من حين لآخر، كانت تدلف إلى الشرفة، وكانت تأمل، بينما كان نظرها معلقا نحو جادة أوشي، أن تلمح وصول باغريان. بأنيسي، اتصلت بالرقم الهاتفي 320.12.52 . لمدة يومين، كانت تتصل دون جدوى. تذكر شعور الراحة الذي غمرها حينما تناهى إليها أخيرا صوته وهو يقترح عليها أن تأتي منذ الغد. ذات زوال جميل، في أحد أيام الربيع الأولى. على متن الحافلة، لحظة التوقف أمام البناية الصغيرة للمحطة الطرقية، كانت متوترة. كانت تخشى أن يظهر بويافال على حين غرة ويحدد مكانها، من مقعده الحجري، وراء زجاج النافذة. سيصعد إلى الحافلة، وسيكون قادرا على سحبها إلى الخارج، دون أن يقوى السائق الذي سيكون

Twitter: @ketab_n

أمام مقوده على تحريك ساكن للدفاع عنها، ولا أي واحد من المسافرين القليلين الذين سيبدو الانزعاج على محياهم. مرت في ذهنها بعض الكلمات. ليس هناك من يهب لمساعدة شخص في وضع محفوف بالمخاطر.

انطلقت الحافلة، شعرت بالنجاة. واصلت سيرها على امتداد جادة برونيي، تحت أشعة الشمس، بمحاذاة مدرسة بيرتولي الثانوية والثكنة، ولم يكن هناك ما يعكر سماء سعادتها سوى خشية غامضة: فقد انتهت صلاحية جواز السفر الذي تحتفظ به في واحد من جيوب واقيتها المطرية منذ سنة. لكن، أن يتم اعتقالها أو عدم اعتقالها عند الحدود، فالأمر سيان. ستواصل السير ولن تعود القهقرى.

ذلك الزوال أيضا، كان الجو رائعا. على جدران الصالة، خطت الشمس بقعا كبيرة. كانت قد آنست من نفسها الرغبة لمغادرة المبنى للسير بمحاذاة البحيرة في انتظار عودة باغريان. لا بد أنها كانت خالية البال. يكفي أن تطلق العنان للامبالاتها الطبيعية، كما كانت تلك عادتها غالبا. في ممرات المنتزه، أثارت اهتمامها مجموعة من الإعلانات. على قاعدة تمثال يمثل مجموعة من القردة، كانت هناك حكمة لم تدرك مدلولها: «أن لا ترى سوى بعين واحدة. أن لا تسمع سوى بأذن واحدة. أن تعرف أن تحجم عن الكلام. أن تكون دائما في الموعد.» ومع ذلك فقد دونتها. لعلها تكون ذات أهمية. وعند حافة كل عشب أخضر، توجد يافطة تحمل الكلمات التالية: «لا يجب المشي على العشب الأصفر.»

Twitter: @ketab_n

غالبا ما كانت تتجول عبر هذا المنتزه رفقة الأطفال. حينما خطرت ببالها فكرة أن يكون بويافال يسير على طول جادة أوشي وهو يبحث عنها، عدلت عن رغبة الخروج. بدا لها بغتة أن البحيرة والمنتزه والجادات التي تخضبها أشعة الشمس، حيث كانت تظن أنها في مأمن، أماكن ملوثة بحضور هذا الرجل. هكذا يوجد أشخاص لم يقع عليهم اختياركم، أشخاص لا تطلبون منهم أي شيء، أشخاص قد لا تنتبهون حتى لوجودهم بينما تتقاطع سبلكم، ومع ذلك فإن هؤلاء الأشخاص، دون أن تعرفوا السبب، يرغبون في الحيلولة دون شعوركم بالسعادة.

حوالي الخامسة مساء، حينما لمحت باغريان وهو يخطو على طول الممشى، استعادت هدوءها. لحسن الحظ، لم تكن «السكرتيرة» أو الفتاة «النرويجية» برفقته. للعودة من عمله، من وسط المدينة، كان عليه أن يستقل قطار الأنفاق ـ القطار السلكي، كما كانت تسميه، بسبب المنحدر. كانت غالبا ما تستقل هذا القطار رفقة الأطفال. كانت للمحطات أسماء غريبة تحفظها عن ظهر قلب: جورديل، مونتريون. المحطة الرئيسة. في حمأة ارتباكها، نادت عليه باسمه الشخصي ولوحت له بساعدها. هز رأسه نحو الشرفة وابتسم لها. لم يبد عليه المفاجأة حينما نادت عليه باسمه الشخصي. فتحت له الباب قبل أن يصل إلى العتبة. وبدل أن تصافحه كما جرت العادة، وضعت يدها على كتفه ودنت من وجهه دون أن يبدي ولو قدرا ضئيلا من المفاجأة. شعرت بالارتياح وهي تشعر بملمس شفتيه. كان ذلك أفضل وسيلة لنسيان بويافال.

Twitter: @ketab_n

لاحقا، كانا في مطعم على ناصية إحدى الجادات في منحدر حيث المباني ذات اللون الأمغر تشبه تلك التي توجد على كوت أزيز. في ساعة الغسق، حينما كان الجو رائعا، كانت تردد في داخلها، أنها إذا ما ركبت دراجة وسلكت إحدى هذه الأزقة المقفرة، فسينتهي بها المطاف على رمال شاطئ. لا تذكر بوضوح كل ما جرى تلك الأمسية. كانت قد شربت أكثر من المعتاد. بعد المطعم، صعدا السيارة نحو وسط المدينة، إلى مكتبه حيث كان قد نسي شيئا ما. كانت «السكرتيرة» هناك، ورغم الساعة المتأخرة فقد كانت ترتب ملفات مكدسة على الأرض، كما لو كان ذلك للانتقال إلى مكان جديد. كان قد اتصل مرات ومرات ولم تكن تفهم شيئا مما كان يتلفظ به خلال كل مكالمة، لاشك لأنها كانت ثملة إلى حد ما. من يمكن أن يكون على الجانب الآخر من الخط؟ بعد أن قالت لها «السكرتيرة» مساء الخير، على مضض، تظاهرت بأنها لا توجد. نعم، لقد كانت دو شك أقل لطفا من الفتاة «النرويجية.» غادر ثلاثتهم المكتب. على ناصية شارع كران شين، كان باغريان قد اقترح أن يتناولوا كأسا في حانة الفندق المجاور. جلست في أريكة جلدية، ما بين باغريان و«السكرتيرة،» بينما انتصب كأس من شراب الفودكا أمامها. «على الطريقة الروسية،» قال باغريان وهو يقرقع كأسيهما. كانا كلاهما قد أفرغا محتويات الكؤوس في جوفيهما دفعة واحدة، كما يقال في فندق محطة أنيسي، لكنها كانت تحتسي كأسها رشفة رشفة لأنه لا قِبل لها بشراب الفودكا. بدا لها أن «السكرتيرة» أصبحت ودودة. ابتسمت لها وبادرتها بمجموعة

Twitter: @ketab_n

من الأسئلة. هل تشعر بالراحة في لوزان؟ وقبل الآن، أين كانت تشتغل؟ هل لديها عائلة في فرنسا؟ حاولت أن تجيب، لكن أغلب الكلمات لم تكن تسعفها. ومع ذلك، فإن باغريان و«السكرتيرة» كانا ينظران إليها برفق، كما لو أنهما تأثرا فعلا لهذه الصعوبة التي تعاني منها في الكلام. انتبهت إلى أن الكلمات التي كانت بالكاد تتلفظ بها غدت شيئا فشيئا غامضة، لكنها للمرة الأولى في حياتها لم تشعر بالضيق أو الخشية. لم تعد تشعر بتلك الخشية التي كانت دوما تعذبها في حضور الآخرين، الخشية أن «لا تكون في المستوى.» كلا، كل ما عليهم القيام به هو فقط تقبلها كما هي، لن تقوم بأي جهد لكي تكون في مستواهم، ستكتفي فقط بأن تكون كما هي، بكل بساطة، وإذا لم يعجبهم ذلك، فذلك شأنهم. تذكرت عبارة: « أنا أُحب كل من يحبني.» وعلى حين غرة، تفاجأت وهي تتلفظ بها بصوت عال أمام باغريان و«السكرتيرة.» ألقت عليها الأخيرة بنظرة. أما باغريان فقد حنى جذعه إلى الأمام وقال لها بصوته العذب:

«بالطبع، مارغريت، أنت على حق، نعم كلامك صحيح...أنا أحب كل من يحبني...» وقد بدا عليه التأثر بسبب هذه العبارة.

تساءلت في داخلها إذا ما كانت الفتاة «النرويجية» ستلحق بهم، مع أنه نادرا ما يحدث أن تكون الفتاة «النرويجية» و«السكرتيرة» معا. كانت كل واحدة منهن تقضي الليلة في شقة باغريان بالتناوب. ومع ذلك، ذات ليلة فقد بقيتا كلاهما معه. فكرت بأن حياته العاطفية لابد أنها معقدة جدا. والآن؟ سنرى ما سيحدث.

Twitter: @ketab_n

يجب التمتع بالحياة، كما كان رب مقهى المحطة بأنيسي، يردد. غدت «السكرتيرة» ودودة أكثر فأكثر. أمسكت بيد مارغريت.

«بالطبع، هذا جميل جدا. أنا أُحب كل من يحبني...ستكتبين لي هذا الكلام حتى أتذكره دائما...»

سألها باغريان: «ألا تحبين الفودكا؟»

بلى. كانت تحب كل شيء. على العكس، لم تكن تحب المجادلة. أفرغت كأسها في جوفها دفعة واحدة.

في الخارج، على ناصية الشارع، تساءلت إذا ما كانت «السكرتيرة» سترافقهم إلى الشقة. لكن لا. أخبرت باغريان:

«إلى الغد، ميشيل.»

تصافحا. بعد ذلك التفتت نحو مارغريت وابتسمت لها.

«ستكتبين لي تلك العبارة عن الحب، أليس كذلك؟ إنها في غاية الروعة...»

شاهدتها وهي تبتعد وكان كعب حذائها العالي يصدر طقطقة منتظمة تخترق سجف الهدوء الساجي. تدحرجت السيارة، بينما لا يزال المحرك غير مشغل، على طول جادة أوشي. تسبب لها المنحدر في الدوار. كانت تطفو. أسندت رأسها على كتف باغريان الذي أدار مفتاح المذياع. ثمة مذيع يتحدث، بصوت خافت، اللغة الألمانية، ألمانية غريبة لا تشبه لغة برلين حيث كانت قد ولدت، ألمانية الجنوب بالنبرة الخفيفة التي تميز سكان مرسيليا. جعلتها فكرة اللغة الألمانية بنبرة مرسيلية تنطلق في الضحك.

أخبرها باغريان: «أرى أنك الآن أكثر انبساطا من ذي قبل.»

Twitter: @ketab_n

كانت لا تزال تضع رأسها على كتفه. ومادام أن السيارة كانت قد توقفت عند إشارة المرور، فقد التفتت بخفة وأخذت تداعب شعره ووجنته.

ما أن انطلق على طريق بوريفاج حتى تعرفت على بويافال في معطفه الأسود المحكم أمام المبنى. ها هو كما كانت تتوقع. شعرت بالاندهاش لأنها لم تشعر بخوفها الاعتيادي. لا، على العكس، شعرت بالاختناق من جراء درجة زائدة من الغضب. هل السبب في ذلك يعود إلى كأس الفودكا الذي احتسته منذ قليل أم يرجع إلى وجود باغريان؟ كانت في الواقع تنتابها الرغبة في تحديه. لقد كان هذا إذن الشخص الذي يسمم طعم حياتها ويجعلها تهدم الجدران؟ لا شيء غير هذا؟ هذا النذل الذي يحول دون استمتاعها بأشعة الشمس... وهكذا استسلمت في الأخير، كما لو كان ذلك قدرها، كما لو كان ذلك أفضل ما يمكن أن يقع لها.

أخبرت باغريان: «دُسه.»

أشارت إلى الآخر، هناك، أمام المبنى.

سألها الآخر بصوت هادئ جدا، كما لو كان يهمس: «لماذا تريدين أن أدهسه؟»

للمرة الأولى رفعا التكلف بينهما. شعرت بالخوف يغمرها من جديد كما لو كان صداعا رأسيا يعود بعد انصرام ساعات، بعد أن تناولت قرصا مهدئا. ركن السيارة، وكان بويافال هناك، متجمدا في مكانه. من المحال تجنبه.

«هذا الشخص يخيفني. سنبقى قليلا في السيارة؟»

Twitter: @ketab_n

استدار باغريان نحوها، بينما كانت المفاجأة تعلو محياه.

«لكن لماذا يخيفك؟»

حافظ صوته على هدوئه العادي. لم تفارقه ابتسامة ساخرة وهو يتفحص بويافال باهتمام.

«أتريدين أن أسأله عن سبب وجوده هنا؟»

تقدم بويافال بخطوات قليلة حتى يتمكن من رؤية راكبي السيارة. التقى نظره بنظر مارغريت. رماها بابتسامة. ثم أقفل عائدا إلى مكانه أمام المبنى.

«هذا الزوال، مشيت حتى المنتزه وكان هذا الشخص يلاحقني.»

فتح باغريان الباب للخروج، لكنها أمسكته، وهي تضع يدها على ذراعه. كان المسدس في غمده الرمادي مجرد تفصيل، شيء للتظاهر،كما كان يردد الأصدقاء القدامى لبويافال. أحيانا يحمل سكينا له أنصال عديدة، وكانت إحدى دعاباته المفضلة، قبل أن يبدأ جولة من لعبة البوكر في محطة المقهى، أن يضع راحة يده اليسرى على الطاولة، وقد وسع ما بين أصابعه، ثم يغرس السكين بسرعة متزايدة بين أصابعه. إذا ما بقيت أصابعه سالمة، فعلى شركائه في اللعبة أن يمنحوه، كل واحد منهم على حدة، خمسين فرنكا. أما إذا أصاب يده بجرح، فيكتفي بلفها في منديل أبيض وتبدأ الجولة، كما المعتاد. ذات مساء إذ اقترب منها بمنتزه الباكيي بينما كانت تتوجه نحو سينما الكازينو، أخبرته، بنبرة أكثر غلظة من المعتاد، أن يتركها بسلام. أخرج سكينه، فظهر النصل وضغط قليلا، برأسه، بين

Twitter: @ketab_n

ثدييها. ارتعبت حقا ذلك المساء وأرغمت نفسها على عدم مبارحة مكانها قيد أنملة. كان يحدق في عينيها مباشرة بابتسامته الغريبة.

أخبرها باغريان: «من الغباء أن يخاف المرء. أنا لا أخشى أي شيء.»

أخرجها من السيارة. أمسكها من ذراعها بينما انتصب الآخر قبالتهما أمام المدخل. كان باغريان يمشي ببطء ويضغط على ذراعها. شعرت بقليل من الطمأنينة والأمان برفقته. كانت تردد عبارة حتى تشحذ همتها وتستجمع قواها: «إنه ليس طفل المذبح.» لا، هذا الرجل، بالرغم من سلوكه ولغته الفرنسية المتميزتين، والذي يضغط على ذراعها الآن، لا شك أنه متورط في نشاطات خطيرة. كان قد أثار انتباهها الهيئات المثيرة للأشخاص الذين يترددون على مكتبه والأفراد الغريبون الذين يحيطون به حينما جاءت ذات يوم قبيل حلول المساء لتلتحق به رفقة الأطفال في جنيف في بهو فندق الرون.

سأل باغريان: «هل تبحث عن شيء ما، سيدي؟»

كان بويافال يستند بظهره إلى البوابة ويضع ذراعا على ذراع. كان يتطلع إليهما بابتسامة جامدة.

بصوته الهادئ نبر باغريان: «إنك تعيق حركة المرور.»

تراجعت مارغريت إلى الوراء. لم يحرك الآخر ساكنا، لا تزال الذراع على الذراع، وسحابة صمته تطوقه.

بصوت خافت جدا، كما لو أنه لا يريد أن يوقظ شخصا ما، همس باغريان: «بإذنك؟»

Twitter: @ketab_n

حـاول أن يغيـر مـكان بويافـال نحو اليمين وذلـك بدفعه من كتفه، غير أن الأخير لم يبرح مكانه.

«إذن سترغمني على أن أوقع بك الأذى.»

دفعـه بقـوة بحيـث اندفع بويافال إلى الأمام وسـقط من طوله علـى حافـة الرصيـف. لاحظـت مارغريـت بأنـه ينزف بيـن ملتقى الشـفتين وكانت تتسـاءل إذا لم يفقد الوعي. تقدم باغريان وانحنى بجذعه فوقه:

«فـي هذه السـاعة سـتجد صيدليـة مفتوحة في جـادة رومين، سيدي.»

بعد ذلك فتح البوابة وفسـح المجال لمارغريت. أمسـكها من ذراعها من جديد. في المصعد، لم يطرح عليها أي سؤال، كما لو لم يحدث أي شيء وأن الموضوع برمته، على أي حال، لا يستحق العناء على الإطلاق.

لاحقا، جلست إلى جانبه على الأريكة. كانت تود أن توضح الأمور أكثر، أن تخبره أن هذا الشخص كان يلاحقها دون هوادة منذ مدة. لكنه تبدى مرتاحا، ترفرف الابتسامة على محياه، بحيث يمكن للمرء أن يعتقد بأنه عاد للتو من سهرة ممتعة رفقة بعض الأصدقاء وأن الحادث الذي وقع منذ لحظات لم يقع أبدا. في أنيسـي، في البداية، كانت قد ترددت خلال مناسـبتين على مركز الشـرطة طلبا للحماية وربما لتضع شـكوى. لم يأخذوها على محمل الجد. في المـرة الأولـى، قـال لها رجل الأمن: «أنت جميلة جدا، آنسـتي... نتفهـم أن يكـون لديك عشـاق.» وفي المـرة الثانية، كانوا أقل لطفا

Twitter: @ketab_n

معها بكثير ونظروا إليها بارتياب. لم يأبه أي أحد لأمرها.

كانت في نهاية المطاف تغمغم: «أنا متأسفة.»

«لماذا أنت متأسفة؟»

سكب الكحول في كأسين. اقترب منها وهمس في جوف أذنها: «على الطريقة الروسية.» هذه المرة، كانت عازمة على رشف الكأس رشفة واحدة. إذا لم يكن قد أبدى أي فضول بشأن وجود بويافال أمام المبنى، فلاشك أن في حياته الشخصية أمورا أكثر إزعاجا وبأن هذا الفصل يبدو له تافها. لهذا السبب إذن لا تقع عليه الأمور موقع المفاجأة ويبدي برودة الأعصاب، وحتى عدم الاكتراث. لقد كان محقا، وهي تحبه لهذا السبب. أطفأ ضوء الصالة وشعرت بيده تفك أزرار قميصها في المكان الذي كان الآخر، منذ أمد بعيد، قد ضغط بنصل سكينه. لكن الآن، تبدو الأمور مختلفة. يمكنها أخيرا أن تسمح لنفسها بأن تطفو. نعم، معه تبدو الأمور فجأة في غاية البساطة.

حوالي الرابعة صباحا، غادرت للحظة غرفة باغريان لترتب ملابسها التي انتثرت في فوضى على الأريكة وعلى بساط الصالة. كانت ردة الفعل هذه حصيلة سنوات من الإقامة بالمدرسة الداخلية، وأيضا من العادة التي نشأت لديها من كونها لا تجد نفسها أبدا في غرفة أو مكان يمكن اعتبارهما حقا مكانها الخاص. كانت دائما في عبور وتوجس. كل مرة يجب أن تكون ملابسها جاهزة بجانبها حتى تغادر ما أن يطرأ أي طارئ.

كانت نافذة الصالة مفتوحة قليلا، وكان صبيب المطر يملأ

Twitter: @ketab_n

سمعها. ألصقت جبينها إلى زجاج النافذة. في الأسفل، كان بويافال لا يزال مرابطا في مكانه. كانت تشاهده بوضوح في ضوء المدخل حيث لا تزال المصابيح الجدارية معتلقة خلال الليل. يبدو كحارس يصر على القيام بحراسة لا جدوى منها. كان يدخن بينما ارتسمت بقع الدم أسفل وجهه. لم يكن يحتمي حتى من المطر تحت إفريز المدخل. كان يقف متصلبا، يكاد يؤدي تحية عسكرية. كان بين الفينة والفينة يستنشق سحابة دخانه. كان معطفه البليل ملتصقا بجسده. كانت تتساءل إذا ما كانت هذه الهيئة السوداء ستداري عنها الأفق طول حياتها. يجب عليها أن تستمد العزم والهمة من كل مصادر الصبر لديها، لكنها كانت تقوم بذلك دائما منذ نعومة أظفارها. لماذا؟ وحتى متى؟

في غرفة فندق سيفينيي، كان النوم يجافيها لليال عديدة، كما كان يحدث لها غالبا في أنيسي. كانت تخشى دائما تناول الأقراص المنومة، مخافة أن تهجع إلى الأبد.

مرة، بأنيسي، حوالي الثالثة صباحا، لم تعد تطيق البقاء في غرفتها دون نوم. هكذا غادرت الغرفة، وسارت على طول شارع فوجيلاس الموحش. كان الضوء الوحيد ينبعث من مقهى المحطة التي تبقى أبوابها مشرعة طوال الليل.

كانت ترتاد المقهى كلما جافاها النوم. وكان رواده لا يتغيرون أبدا. لكن شيئا ما شد انتباهها: لا يمكن رؤية هؤلاء الأشخاص في الشوارع في واضحة النهار. ومع ذلك كان بصرها يقع على

Twitter: @ketab_n

بعضهم. كانت روزي تشتغل في متجر للعطور بشارع روايال حيث كانت مارغريت لو كوز تلمحها وراء زجاج المتجر وكان ينتابها إحساس بأن هذه الفتاة الشقراء، المبتسمة والأنيقة جدا، لم تكن الفتاة ذاتها خلال الليل. كما أنها كانت قد التقت في العديد من المناسبات بالطبيب إيرفيو قبيل حلول المساء. هل كان فعلا الرجل ذاته؟ خلال النهار، فلا روزي ولا الطبيب إيرفيو يبدو أنهما يعرفانها، لكن خلال الليل، في المقهى، كانا يتبادلان معها أطراف الحديث. أما الآخرين، فلم تلتق بهم أبدا خلال النهار، كما لو أنهم يتبددون مع طلوع الشمس: أولاف بارو، كاي كرين، وتلك التي تلقب بإريرما اللطيفة...حدث ذلك هنا، في مقهى المحطة، حيث شد انتباهها، منذ الليلة الأولى، بويافال. في البداية، لم تكن ترتاب من أمره. كان يبدي نحوها نوعا من اللطف. كان يشد على يدها وينبس ببعض الكلمات الودودة قبل أن يبدأ جولة البوكر. بعد ذلك لاحظت، مع توالي الأيام، كم كان متوترا. ذات ليلة، كان قد عرض عليها أن يأخذها إلى لا كلوساز لقضاء اليوم هناك. سيقومان معا بالتزحلق على الجليد. رفضت العرض. لم يسبق لها أبدا أن انتعلت أحذية التزحلق. غير أن الآخر تبدى عدوانيا.

«لماذا؟ هل أنت خائفة مني؟»

اندهشت كثيرا وقد غاضت الكلمات في حلقها. لحسن الحظ أن الآخرين استدرجوه إلى جولة البوكر. علمت بأن هذا الشخص كاد، منذ سنوات خلت، أن يصير عضوا في المنتخب الفرنسي لرياضة التزحلق، لكنه تعرض لحادث خطير. كان مرشدا في

Twitter: @ketab_n

محطتي لا كلوساز وميجيف للتزحلق على الجليد. ربما قد يكون شعر بالضيق للفتور الذي أبدته بشأن التزحلق، ولعله استهجن موقفها حينما رفضت اقتراحه. لكن، بعد ليال، أخذ موقفه نحوها طابعا مقلقا.

كانت قد التقت به مرات عديدة، عند مشارف الزوال، حينما كانت تذهب للعمل لمنتصف النهار في مكتبة لا بوست. كان يعترض طريقها كما لو كان يشعر بأنها لا تود الحديث إليه. حاولت أن تحافظ على هدوئها وأن تكون مهذبة. لكن، كلما اقترح عليها موعدا، كانت تتحل عذرا لترفض دعوته، ومن جديد كان يبدو عنيفا. ذات مساء، كانت قد قبلت دعوته إلى السينما. قدرت بأنه بعد ذلك سيكون أقل إلحاحا. خلال هذا المساء، كانا تقريبا المشاهدين الوحيدين في قاعة الكازينو. كانت تذكر بكل وضوح حينما تستعيد تلك الخواطر، أنه في باريس، في هذه الغرفة في فندق سيفينيي، كان الفيلم وألوانه السوداء والرمادية مرتبطة ارتباطا لا يدع مجالا للشك بالنسبة لها بأنيسي، بمقهى المحطة، وببويافال. كانت تتوقع، في حلكة الظلمة، أن يمد في النهاية يده ويطوق كتفها، أو أن يمسك بيدها، وستقبل بذلك بالرغم من شعورها بالتقزز. أحيانا، كانت ترتاب كثيرا من نفسها بحيث كانت على استعداد أن تهب الشيء الكثير من ذاتها حتى تحظى برضا الآخرين أو حتى لا يضمرون لها أية عداوة. نعم، غالبا، ما كانت تشعر بأنها في الوضع الحرج لأولائك الأشخاص الذين عليهم أن يستسلموا دونما انقطاع لرغبات من يبتزهم على أمل أن يحظوا بلحظات من الراحة.

Twitter: @ketab_n

لكـن، خـلال مراحـل الفيلم، لم يبادر بأي من الحركات التي كانت تخشاها. كان يجلس متصلبا جامدا في مقعده. لاحظت بأنه يحني جذعه إلى الأمام، كما لو أن الشاشـة قد شـدت انتباهه، في اللحظـة التـي تدخـل فيها الفتـاة إلى غرفة قائد الجوقة الموسـيقية الشـاب وتطلق عليه النار من مسـدس. انتابها شـعور طاغ بالضيق. تصـورت فجـأة بويافـال، وهو يمسـك بمسـدس في يـده، ويدخل غرفتها في شارع الرئيس فافر.

حينما غادرا قاعة السينما، اقترح أن يرافقها إلى مكان إقامتها. كان صوته لطيفا ينم عن خجل لم تكن تدري أنه من عاداته. كانا يسيران جنبا إلى جنب ولم يقم بأية خطوة تودد نحوها. مرة أخرى، كان يرغـب فـي أن يأخذهـا ذات زوال إلـى محطة لا كلوسـاز من أجل حصة من التزحلق على الجليد. لم تجرؤ على رفض عرضه خشـية أن يعتكـر مزاجـه مـرة أخرى. كانا قد تجـاوزا منتزه الباكيي وكانا على الربوة التي تقع عليها فيلا شميدت.

«هل لديك صديق؟»

لم تكن تتوقع أن يطرح عليها سؤالا من هذا القبيل. فأجابته بأن: لا. كان هذا أكثر احتراسـا. لا تزال تذكرُ المشـهد في الفيلم حيث تطلق الفتاة النار من المسدس بدافع الغيرة.

منـذ ذلـك الحيـن، وحتى وصولهمـا أمام المبنـى، كان يزداد اضطرابا وعصبية بالرغم من أنه حافظ على صمته. كانت تتسـاءل إذا مـا كان يعتـزم الصعـود إلى غرفتها. كانت قد عزمت على عدم معارضته. حتى تستجمع شجاعتها، كانت تردد بداخلها نصيحة فتاة

Twitter: @ketab_n

لها في المدرسة الداخلية وقد كانت غالبا ما تتبعها: «لا تتسببي في القلاقل.» توقفت عند باب المبنى.

«أترغب في الصعود؟»

كانت قد قررت أن تفجر هذا الدمل الصديدي. لشد ما أرادت أن ترى كيف سيتصرف هذا الشخص الذي يضايقها دون أن تجد تفسيرا مقنعا لطريقته في الحياة. على الأقل، ستتضح لها الأمور.

تراجع إلى الوراء وقد فاجأها التعبير الذي انطوت عليه نظرته، تعبير من الحقد ستصطدم به في الغالب لاحقا، كلما تطلع إليها بنظره، حقد كانت كل مرة ترغب أن تسأل عن سببه.

«ألا تشعرين بالخجل وأنت تتحدثين إلي بهذه الطريقة؟»

خاطبها بنبرة صارمة تشبه الصوت الغريب لسدادة برميل.

تلقت صفعة على وجنتها اليسرى، دون أن تتوقع ذلك. كانت هذه أول صفعة منذ أيام المدرسة الداخلية. بقيت للحظة ذاهلة. بحركة آلية، وضعت أصبعها عند ملتقى شفتيها حتى ترى إذا ما كانت تنزف. الآن، واجهته، وقد كان لديها الشعور بأنه هو الذي كان في وضعية الدفاع. تناهى لها صوتها وهي تقول ببرودة:

«أ لا تريد الصعود حقا؟ هذا غريب...أتخشى من الصعود؟ أخبرني لماذا أنت خائف؟»

بُومة بهرها النور! تراجع إلى الوراء. كانت تنظر إليه وهو يبتعد بخطوات متقطعة، على امتداد الشارع. هناك، تلاشت هيئته أخيرا وتداخلت مع الجدار الغامق لمربط الخيول. سيندثر في الهواء. رددت في داخلها بأنها تخلصت منه إلى الأبد.

Twitter: @ketab_n

لكنه بعد مرور يومين ظهر مرة أخرى. كانت جالسة خلف مكتبها بالمكتبة التي تربض على شارع لا بوست. كانت الساعة السادسة مساء وقد كان الظلام قد حط. انتصب أمام الواجهة الزجاجية للمكتبة وقد بدا كما لو أنه يتأمل الكتب المعروضة. بين الفينة والفينة، كان يجزي إليها نظرة وكان قد شرع في ابتسامة. دخل إلى المكتبة.

«أقدم اعتذاري على ما بدر مني ذلك المساء.»

أخبرته بصوت في غاية الهدوء:

«ليس للأمر أية أهمية.»

يبدو أن لامبالاتها قد طمأنته.

«إذن فأنت لست غاضبة مني؟»

«لا.»

«ربما نلتقي بمقهى المحطة؟»

«ربما.»

انخرطت مرة أخرى في معاملة حسابية كان يسعى ألا يشغلها عنها. بعد حين، تناهى إليها باب المكتبة وهو يطبق دونه. وبالرغم من السهاد الذي كان يلم بها خلال الليل، فلم تعد تتردد على مقهى المحطة، مخافة أن تلتقي به هناك. كل مساء، حوالي الساعة السادسة، كان ينتصب خلف الواجهة الزجاجية للمكتبة. كان يراقبها. كانت تضطر لألا تبدي حراكا، وكانت تضع نظارات شمسية لتحتمي من نظراته التي لا تفارقها، فكان وجهه يبدو عبر الواجهة الزجاجية غائما. وجه وجسم هزيلان جدا، لكنهما كانا

Twitter: @ketab_n

يخلقان لدى مارغريت شعورا بالبلادة كما لو أن الهيئة كانت أكثر ثقلا والجسم أكثر ترهلا وبياضا مما قد يبديان عليه للوهلة الأولى. على أي، كان الأشخاص الذين يشاركونه لعبة البوكر في مقهى المحطة يشاطرونها هذا الانطباع، حيث كانوا يلقبونه ب «البهموث.» أما روزي، الفتاة التي تشتغل بمتجر العطور، فقد أخبرتها بأن له لقبا آخر لم تفطن إلى معناه: «سريع القذف.»

في باريس، في هذه الغرفة بفندق سيفينيي، كان كل شيء يبدو لها بعيدا... ومع ذلك، حينما تهب من النوم مستيقظة، في جوف الليل، لا يمكنها سوى أن تستعيد ذلك كله. ذات يوم، كانت تسير رفقة روزي تحت قناطر التجمعات السكنية الضخمة، بالقرب من الحانة. حدثتها قليلا عن أسرارها وطلبت منها كيف يمكنها أن تتخلص من هذا الشخص. أخبرتها الأخرى: «إنه يضايقك لأنك لا تتوفرين على دفاعات وقائية...إنه مثل الجراثيم...» نعم لقد كانت غالبا ما تجد نفسها في هذا الوضع المحفوف بالكثير من المخاطر. وقد بدا لها ذلك واضحا حينما ذهبت إلى الشرطة طلبا للحماية. لم يكترثوا لها بتاتا. كان موقفهم سيبدو مختلفا لو تعلق الأمر ببنت رجل صناعي أو محامي يقطن الضاحية. لكنها كانت دون عائلة؛ كانوا يعتبرونها مجرد فتاة معدمة، عنوان رواية كانت قد قرأتها. فرجل الأمن، وهو يتفحص جواز سفرها الذي انتهت صلاحيته، سألها لماذا ولدت في برلين وأين يوجد والداها. افترت الكذب: أب مهندس مناجم يقيم في باريس وغالبا ما يوجد في الخارج رفقة زوجته، أما هي فقد تلقت تعليما رصينا لدى

Twitter: @ketab_n

أخوات سانت جوزيف في ثون وفي المدرسة الداخلية للا روش سير فورون. لكن يبدو أن ذلك لم يثر اهتمام مخاطبها كثيرا. كان ذلك في صالحها. كان من الصعب الخوض في التفاصيل. نصحها، وهو يبتسم ابتسامة ساخرة، بألا تضع شكاية ضد شخص لا يريد بالتأكيد أن يوقع بها الأذى... مجرد عاشق. كما تعلمين، أخبرها من باب إنهاء الحديث، ما دام ليس هناك حادث وفاة...

بالطبع، كانت ستشعر بالانزعاج لو أن هذا المخبر خاض في التفاصيل...البارحة، توصلت برسالة، هي الأولى منذ مدة، كانت موضوعة على منضدة. نظرت إلى المظروف وقد كادت أن تفاجأ حينما قرأت:

الآنسة مارغريت لو كوز
فندق سيفنيي
رقم 6 شارع بيلوي
باريس الضاحية 16

كانت الرسالة تحمل في جزئها الأعلى علامة وكالة ستيوارت وكانت بعض السطور قد طبعت بواسطة الآلة:

آنستي العزيزة،

أذكرك أنني كنتُ قد طلبت منك خلال لقائنا ليومه الخميس الماضي شهادة من مشغلك القديم السيد ميشيل باغريان. من جهة أخرى، هل يمكنك أن ترسلي لي سيرة حياة موجزة تخصك

Twitter: @ketab_n

لأنني تنبهت بأن ملفك لدى الوكالة لا يقدم معلومات وافية بالنسبة لزبائننا.

تحياتي الصادقة

ج. توسان.

حياتها... خلال لحظات الأرق، في غرفة فندق سيفيني، كانت تراودها ومضات من الذاكرة وكان يداخلها الإحساس بأنها تسافر على متن قطار ليلي. كانت رجات القاطرة تتناغم تماما مع إيقاع حياتها. كانت تضغط بجبينها على النافذة الزجاجية للمقطورة. الظلام، وبعد ذلك، من حين لآخر، الأرصفة الموحشة لمحطة يمر بها القطار، ثم على لوحة، اسم مدينة كانت علامة ارتكاز، ظلام النفق...برلين. لا تذكر أي شيء بخصوص برلين. كانت توجد رفقة أطفال آخرين على كومة من الأنقاض، أمام مباني في حالة دمار، وكانوا يشاهدون خلال ساعات الزوال الطائرات وهي تمرق، الواحدة بعد الأخرى، بإيقاع سريع وتحط على مسافة بعيدة شيئا ما. حينما كان يراودها حلم باللغة الألمانية، كانت تصغي إلى أغنية تتحدث عن القناة المائية ببرلين وكانت تصيبها بالجزع... لطالما احتفظت بكتاب عتيق، طبع خلال الحرب، عنوانه ذهب مع الريح. في هذا الكتاب، كانت قد عثرت على ملف يستخدم كعلامة للصفحات، وفي الأعلى كتب معمل أرغيس موتورين، ممر غراف روديرن؛ برلين، رانيكندورف، وكان اسم أمها قد دون هنا: لو كوز جينفيير، من مواليد بريست. فرنسية. لا زالت تحتفظ بهذه القصاصة، الذكرى الوحيدة التي تبقت لها من أمها. يحدث أن تفقدَ

Twitter: @ketab_n

خلال أيام شيئا يعز عليك كثيرا: وردة نفل من أربع أوراق، رسالة حب، لعبة دب، بينما تصر بعض الأشياء على ملاحقتك لسنوات دون أن تستشيرك بهذا الخصوص. حينما تظن بأنك تخلصت منها إلى الأبد، تظهر في جوف دُرج. ربما عليها أن ترسل هذا الملف إلى السيد ج.توسان صاحب وكالة ستيوارت. قد يثير هذا اهتمام الزبناء.

وبعد ذلك، من برلين، العودة إلى فرنسا حتى ليون. لم تكن قد بلغت بعد السن الذي تعقل فيه الأمور، لكنها تذكر القطار الليلي الذي يتوقف في جميع المحطات، وخلال ساعات، وسط الريف. لم تكن تدري إذا ما كانت أمها ترافقها على متن هذا القطار أو أنها كانت بمفردها. في ليون، كانت أمها تشتغل لدى بعض الأشخاص: لابد أنها هي الأخرى كانت مجبرة على التسجيل في مكتب للتشغيل من قبيل وكالة ستيوارت. المدرسة الداخلية على مرتفع سانت بارتلمي. في الأحلام التي تراودها، وحتى اليوم، كانت تبدو وهي تسير وكان الطريق لا يتغير، خلال الليل، في ساحة التيرو حتى رصيف سانت فانسنت، على امتداد شارع الساوون. تشعر بأن أحدا يتعقبها من بعيد، لكنها تفشل في التعرف عليه بسبب الضباب. هل هو أبوها الذي لم تعرفه أبدا؟ تقطع القنطرة وتصل إلى ساحة سانت بول. لم تفارق عيناها الساعة الكبيرة المضيئة للمحطة. كانت تنتظر شخصا ما، على الأرصفة، قطار يأتي من ألمانيا. تتزوج أمها بشخص يشتغل في مرآب من لا كروا روس لا تحبه. المدارس الداخلية بتون ولا روش سير فورون. كانت تعبر

Twitter: @ketab_n

القناطر بكل يقين مع أمها. بأنيسي، حصلت على وظائفها الأولى لدى زوكولو، وخلال الصيف، بمقهى سبورتينغ. كانت تشتغل نادلة لدى فيديل بورجر وفي نفس الوقت بمكتبة لا بوست. لا لم يرغبوا في منحها عملا بفندق انجلترا. تعمل لدى سيد يدعى ميشيل باغريان كمربية لطفلين في لوزان.

Twitter: @ketab_n

كانت فتاة تخطو أمام بوسمان وهي تدفع عربة أطفال وكانت تبدو، من الخلف، مثل مارغريت. لم يتعرف على هذا المنتزه الذي نشأ مكان المخازن القديمة التي كانت تربض ببيرسي. هناك، على الضفة الأخرى من نهر السين، على امتداد الرصيف الذي لم يعد يلقب بالمحطة، قامت ناطحات سحاب. رآها للمرة الأولى. كانت باريس مختلفة عما كان مألوفا لديه منذ طفولته وكان يرغب في استقصاء الشوارع والتجول فيها. هذه الفتاة، أمامه، تبدو فعلا مثل مارغريت. كان يتعقبها وهو يحافظ بينه وبينها على نفس المسافة. كانت عربة الأطفال التي تدفعها أمامها بيد واحدة فارغة. وهو يقطع المنتزه بينما لا تفارقها عيناه، وصل في الأخير إلى قناعة مفادها أن هذه الفتاة هي فعلا مارغريت. كان قد قرأ، البارحة، رواية من روايات الخيال العلمي، عنوانها دهاليز الزمن. تدور أحداث الرواية حول أشخاص جمعتهم علاقة صداقة خلال سنوات شبابهم، لكن البعض منهم يحافظ على شبابه، وحينما يلتقون جميعا، بعد مرور أربعين سنة، لا يتعرفون تماما على بعضهم البعض. وعلى أي، سيتعذر تحقيق التواصل فيما بينهم: فهم غالب الأحيان جنبا إلى جنب، لكن كل واحد منهم يوجد في دهليز زمني مختلف. إذا ما رغبوا في تبادل أطراف الحديث، فلن يتمكنوا من سماع بعضهم البعض، كما لو كانوا شخصين يعزلهم حوض سمك زجاجي.

Twitter: @ketab_n

توقف وتابعها وهي تنأى باتجاه نهر السين. سيكون من العبث محاولة اللحاق بها، قدر بوسمان. لن تتعرف عليه. لكن في يوم من الأيام، عن طريق معجزة، سنسلكُ نفس الدهليز. وسينطلق كل شيء من جديد بالنسبة لنا.

كان يتجه الآن نحو شارع بيرسي. كان قد دخل البارحة إحدى المقاهي حيث يمكن استعمال الانترنيت. طرق ذهنه اسم «بويافال» الذي كان قد غاب عن باله، أو بالأحرى الذي بقي «مطمورا،» شأنه شأن أسماء الأسر الأرستقراطية الانجليزية الموغلة في القدم التي تندثر لقرون وقرون لأنه لم تعد هناك سلالة تحملها، لكنها تعاود الظهور مرة أخرى، على حين غرة، في سجلات الحالة المدنية للوافدين الجدد ـ هذا الاسم، بويافال، انبعث من رحم الماضي. ذَنب سقط أمامه خلال رحلة من السقوط استمرت أربعين سنة. كتب على لوحة الكمبيوتر: «صفحات بيضاء.» وبعد ذلك: «بويافال.» ثمة اسم بويافال وحيد وعلى امتداد فرنسا كلها. بويافال ألان. وكالة عقارية، رقم 49 شارع بيرسي.

على الواجهة الزجاجية، ثمة صور لشقق للبيع مع أثمنتها معروضة على لوحة إعلانات. دفع الباب. كان رجل يجلس داخل الوكالة، خلف مكتب معدني. على اليمين، على مسافة قريبة جدا من الواجهة الزجاجية، ثمة فتاة ترتب ملفات على رفوف.

«السيد بويافال؟»

«هو بعينه.»

كان بوسمان ينتصب هناك، متصلبا، أمام المكتب، وقد كبرت

Twitter: @ketab_n

حيرته وغاضت الكلمات في حلقه. كان الآخر قد هز رأسه نحوه. كان رجلا ذا شعر أبيض يطول قليلا وعينان رماديتان. كان يرتدي بدلة رمادية في لون عينيه. وجه ضامر. وجنتان قويتان.

«كيف لي أن أساعدك؟»

كان صوته لطيفا وابتسامته مهذبة.

قال بوسمان: «أبحث عن شقة. من الأفضل أن تكون في الحي.»

«لا توجد شقق الحي ضمن دوائر اهتماماتي. وكذلك التي توجد في الدائرة الثالثة عشر، حوالي المكتبة الوطنية.»

أجاب بوسمان: «معك الحق. إنها أحياء جديدة.»

«أفضل العمل في كل ما هو جديد.»

أشار له بالجلوس في الأريكة التي توجد أمامه.

«وما هي الأثمنة التي تفضلها.»

رد بوسمان: «لا يهم.»

كيف يمكنه التطرق إلى الموضوع دون لف ولا دوران؟ لكن أي موضوع؟ كان ذلك عبثيا، لقد كان الأمر يتعلق بشخص آخر يحمل اسم بويافال. وضعت الفتاة أمامه ملفا كان غلافه مفتوحا؛ وقع الكثير من الأوراق قبل أن تأخذ الملف وتضعه على الرف.

قال بوسمان بصوت بارد: «يبدو لي أنني كنت قد التقيت بسيد يدعى بويافال فيما مضى.»

«نعم؟»

تطلع إليه بعينيه الرماديتين حيث ظن بوسمان انه لمح ظلال قلق.

Twitter: @ketab_n

«كان ذلك منذ مدة... في أنيسي...»

كانت هذه إحدى العلامات القليلة التي كانت مارغريت قد منحتها له بخصوص هذا الشبح. كانت قد تعرفت عليه في أنيسي.

نظر الآخر إلى ساعته اليدوية وألقى نظرة على الفتاة التي كانت ترتب الملفات. بدا متوترا. بسبب كلمة واحدة: أنيسي؟

«هل ترغب في تناول مشروب في الجانب الآخر من الشارع؟ فأنا غالبا ما أتحدث إلى زبائني هناك. ستشرح لي بالضبط ما تبحث عنه...»

على الشارع، لاحظ بوسمان بأنه يعرج قليلا. لكنه كان يسير باستقامة، ومع هذا التصلب، وشعره الأبيض الذي يمتد قليلا ووجهه النحيل، كان مظهره يوحي بمظهر جندي سابق.

جلسا في سطح مقهى، تحت أشعة الشمس. كانا الزبونين الوحيدين. من الجانب الآخر للشارع يمتد منتزه بيرسي حيث، منذ هنيهات، كانت شبيهة مارغريت ـ ربما هي، في حياة أخرى ـ تدفع عربة فارغة للأطفال.

«ماء بالنعناع. ماذا عنك؟»

رد بوسمان: «نفس الشيء.»

«تلزمك شقة مساحتها تقريبا كم؟»

«آه، فقط شقة صغيرة.»

«إذن لدي خيارات كثيرة في الجوار، وفي الجانب الآخر من السين.»

ثم أشار بيده، على مسافة بعيدة من منتزه بيرسي، إلى

Twitter: @ketab_n

ناطحات السحاب على حافة نهر السين التي شاهدها بوسمان قبل قليل للمرة الأولى.

سأل بوسمان: «هل هذه شوارع جديدة؟»

«نعم، لا يتعدى عمرها خمس سنوات. أنا الآخر أقطن هناك. لا يوجد جسر علي أن أعبره كل صباح للذهاب إلى الوكالة. أكاد لا أذهب إلى الأحياء العتيقة في باريس.»

«وماذا عن أنيسي القديمة؟»

لمح لدى جليسه ظلال مفاجأة. لكن جذعه بقي مستقيما جدا.

«آه نعم... لقد أخبرتني...أنك تذكر شخصا يدعى بويافال في أنيسي...»

فغر فاه عن ابتسامة مصطنعة.

«هل أقمت في أنيسي؟»

«لا، لكن كان لي هناك أصدقاء أخبروني عن شخص يدعى بويافال.»

«إذن لابد أن ذلك يعود إلى ليل الأزمنة.»

ندت عنه ابتسامة أراد لها أن تكون أكثر صراحة، أكثر ودا.

قال بوسمان: «على الأقل أربعين سنة.»

ران صمت. طأطأ الآخر رأسه، كما لو كان يحاول التركيز لإصدار تصريح مهم والتنقيب عن الكلمات المناسبة. هز رأسه بغثة وحدق في بوسمان بعينيه الرماديتين.

«أجهل ما أخبرك به أصدقاؤك...أنا الآخر لا أذكر جيدا.»

Twitter: @ketab_n

قال بوسمان: «ليس الأمر مهما. هذا الشخص الذي يدعى بويافال كاد أن يصير عضوا في فريق فرنسا للتزحلق.»

«إذن، فنحن نتحدث عن الشخص ذاته.»

اندهش بوسمان للصوت المبحوح، للابتسامة الحزينة، لملامح الوجه التي تهدلت. لاحظ اللحم الضامر على الوجنتين، كما لو أنه كان يرى الآن تفاصيل هذا الوجه بواسطة أشعة تحت حمراء أو ما فوق بنفسجية. وحتى يستعيد الآخر هدوءه، رشف رشفة من كأس الماء بالنعناع وقال أخيرا:

«ولكن لا، لقد أخطأت...لقد تغير هذا الشخص كثيرا...»

استرجع الوجه صفحته الهادئة، واستعادت سحنته لونها الطبيعي. اندهش بوسمان لهذا التغيير. قدر أن نظرته الخاصة فقدت حدة الأشعة تحت الحمراء وما فوق البنفسجية. كان الآخر ينقب عن الكلمات.

«كما لاحظت، سيدي، فقد مر على ذلك أكثر من أربعين سنة...»

هز منكبيه.

«ومن هم أصدقاؤك الذين يقطنون في أنيسي؟»

قال بوسمان وهو ينطق بوضوح مقاطع الكلمة: «فتاة. كانت تدعى مارغريت لو كوز.»

«هل قلت: مارغريت لو كوز؟»

ربما كان يحاول التذكر. هز حاجبيه. كانت نظرته تسبح في مكان آخر.

Twitter: @ketab_n

«وهل لا تزال على قيد الحياة؟»

«لا أدري.»

وبصوت مبحوح مرة أخرى قال:«لا أذكر فتاة باسم مارغريت لو كوز.»

ومن جديد، تهدلت ملامح وجهه، وكان الجلد ضامرا عند الوجنتين.

«كما ترى، سيدي، يبدو الأمر كما آل إليه الحال هنا في هذا الحي.» وقد تأثر بوسمان لنبرة صوته الحزين. ثم تابع الآخر: «لا أعلم إذا ما كنت تعرف المخازن ورصيف بيرسي...كانت هناك أشجار تشكل قبة من الأوراق...طوابير من البراميل على الرصيف...اليوم نتساءل إذا ما كانت هذه الأشياء موجودة فعلا...»

طلب مرة أخرى كأسا من الماء بالنعناع.

«أ تأخذ الشيء ذاته؟»

«نعم.»

حنى جذعه إلى الأمام نحو بوسمان.

«حينما نعود إلى الوكالة، سأضع أمامك قائمة بالشقق الصغيرة المتوفرة لدينا. هناك شقق واسعة وأخرى تتوفر على قدر أوفر من الإضاءة.»

كان قد وضع راحة يده اليسرى على الطاولة.

بيده اليمنى، التقط الملعقة من على صحن الكوب وبقبضته كان يضرب الطاولة بين أصابع يده المتفرقة. لم يستطع بوسمان أن يرفع نظره عن الندوب المحفورة على ظهر يده وعلى طول

Twitter: @ketab_n

أصبعه الأوسط والبنصر. يبدو الأمر كما لو أن هذه اليد كانت عرضة لضربات سكين، مرات ومرات.

بعد فترة وجيزة ـ الفصل ذاته، ربيع حل قبل الأوان حيث كان الجو حارا خلال العديد من الأيام كما في شهر تموز ـ كان بوسمان قد شاهد ظهور ما سماه «شبحا من الماضي» ـ أو على الأقل ظن أنه رآه. ولكن لا، لقد كان شبه متأكد.

الحي الذي وجد نفسه فيه هذا المساء لم يخلف لديه انطباعا مختلفا عن الانطباع الذي خلفته لديه الوكالة العقارية لبويافال. ومع ذلك، فإنه كان سيفضل منتزه بيرسي، ومن الضفة الأخرى لنهر السين ناطحات السحاب والمباني المشعة حوالي الخزانة الوطنية حيث تعيش فتاة كانت تشبه مارغريت ـ ولكن لا، لقد كانت مارغريت كما كان يعرفها ـ حياة جديدة في شوارع جديدة. في يوم من الأيام، قد تسنح له الفرصة هو الآخر لينضم إليها، إذا ما تمكن من عبور الحدود غير المرئية للزمن.

كان قد سلم مائة صفحة حتى تقوم برقنها كاتبة تشتغل في منزلها ـ ولكن ألا تزال تستعمل اليوم هذه الكلمة التي تحيل إلى الضجيج الرتيب التي تحدثه الآلات العتيقة؟ بإمكانه المرور عليها حوالي الثامنة مساء، على عنوانها، بالقرب من باب سانت كلود.

كان قد استقل قطار الأنفاق. كان الزمن كما خلال الأيام التي كان يحمل فيها الأوراق المسودة لسيمون كورديي. وكل مرة، لم تكن ترقن سوى ثلاث صفحات. في هذه الشقة الجرداء، أين كانت

Twitter: @ketab_n

تضع آلة الطباعة الغريبة؟ على المشرب؟ إذن هل كانت تبقى واقفة أم تجلس على الكرسي الطويل دون مسند. منذ ذلك العهد، كان قد ألف أكثر من عشرين كتابا، وقد تم إحراز بعض التقدم التقني: بعد قليل ستسلمه المرأة جهازا صغيرا للتخزين وسيحصل على نص سلس، دون تلك العلامات الغريبة لآلة الرقن العجيبة. لكن ما الذي تغير فعلا؟ لقد ظلت الكلمات هي هي، الكتب هي هي، ومحطات قطار الأنفاق هي هي.

نزل في محطة بورت دو سانت كلود. نعم، لقد كان يفضل الأحياء الجديدة على الجهة الشرقية من المدينة، هذه الأماكن المحايدة التي تمنحك الوهم بأنه بإمكانك أن تحيا حياة جديدة. على العكس، كانت الكنيسة من الطوب الأحمر على ساحة باب سانت كلود تعيده إلى الماضي وتدفع إلى الذاكرة حادثا محزنا: كان في الثانية عشر من عمره، وكان جالسا في المقعد الخلفي لسيارة بينما كانت أمه ورجل الدين السابق يجلسان في المقاعد الأمامية، حيث كان يتولى الأخير القيادة. استغل إشارة المرور لينسل من السيارة، ثم ركض بعيدا حتى الكنيسة واختبأ هناك الزوال بأكمله، خشية أن يرصده الاثنان على قارعة الطريق. شكل هذا أول عهده بالفرار.

عند مغادرة محطة الأنفاق، وهو يبحث في الجيب الداخلي لسترته، انتبه إلى أنه كان قد نسي قطعة الورق حيث كان قد وضع اسم الكاتبة، عنوانها ورقم هاتفها. كانت تسمى كليمون. تذكر أيضا اسم الجادة: دود دو لا برونوري. لم يعرفه. سأل عابرا عن الزقاق.

Twitter: @ketab_n

مباشرة، على الجهة الأخرى من الساحة، تحديدا قبل بولون.

انتظر عند زقاق صغير جدا، تحده بنايات من حجم متوسط، وكان يأمل ألا تكون هناك شفرات خاصة بأبواب العربات. هكذا، كان كل مرة يضطر إلى مراجعة قائمة المستأجرين، بحثا عن الآنسة كليمون. لكن البنايات كانت تقريبا من حجم بنايات الرصيف العتيق للمحطة التي كان قد رآها للمرة الأولى، خلال اليوم الذي تردد فيه على وكالة بويافال. بنايات جديدة كبيرة. سبعة أرقام ثنائية فقط: 2، 6، 10، 12، 16، 20، 26. بوسمان، وهو يرفع عينيه نحو السماء، قدر بأن كل رقم يضم حوالي خمسين شخصا. كانت أسماء تمر هاربة أمام عينيه. جاكلين جوايوز، ماري فيروخان، برينوس، أندري كوكار، ألبير زكدون. فالفي. زيلاتي. لوسيان ألار. لكن لا توجد أي إشارة إلى كليمون ضمن كل هذه الأسماء. شعر بالدوران.كانت الأسماء عبارة عن خيول سباق تنهب الطريق دون توقف، دون أن تترك له الوقت للتمييز بينها. ملك القلب. كينيث. الأزرق والأحمر. ميركوري بوي. المداهنة. مُذهبتي. صعدت غصة إلى حلقه، وشعر بالفراغ. لن يجد الآنسة كليمون ضمن هذه الآلاف والآلاف من الأسماء والخيول. شعر بالعجلة لمغادرة هذه الجادة. كانت الأرض تميد تحت قدميه. ترى ما جدوى كل هذه الجهود، منذ أربعين سنة، لدعم الأساسات؟ لقد كانت أبدا منخورة.

شعر بدوار وهو يقطع الساحة. أعاد بصوت عال اسم الكنيسة، هناك، حيث كان قد لجأ ذات زوال خلال طفولته ليفر من المرأة ذات الشعر الأحمر ـ أمه، على ما يبدو ـ ومصارع الثيران الزائف. سانت جون دو شانتال.

Twitter: @ketab_n

دخل إلى مقهى وجلس في الطاولة الأولى على مقعد من الجلد الأحمر. تخيل أنه كان يحتسي قارورة من الكحول مباشرة، الشيء الذي ولد لديه شعورا بالثمالة وسكينة الروح. وقد جعلته هذه الفكرة يضحك، بمفرده، هنا، على المقعد. حينما جاء النادل، طلب منه بصوت يشي بعدم الأمان:

«كوب من الحليب، من فضلك.»

أصر على التنفس على فترات منتظمة. سانت جون دو شانتال. كانت الأمور تجري على نحو أفضل الآن. استعاد تماسكه. كان يرغب في الحديث إلى شخص ما وأن يشاركه الضحك بشأن الخشية التي كانت تنتابه منذ لحظات. أخيرا، ماذا...في سنه... لم تكن جادة دود دو لا برون على أي حال غابة الأمازون، أليس كذلك؟ هذه المرة شعر بالطمأنينة الكاملة.

بل إنه شعر بشيء من الخدر. كان قد قرر أن لا يراوح مكانه، أن يبقى جالسا هنا، حتى حلول الليل. لا يوجد ما يخشى منه. لم تعد أمه ورجل الدين السابق يقومان بدوريتهما منذ حوالي نصف قرن، على متن سيارتهم ذات الخيول الأربعة، رفقة موكبهما البئيس من الأشباح.

كان يصغي، وهو في حالة شرود، إلى أحاديث الزبناء القلائل على الطاولات المجاورة. حوالي التاسعة مساء، لاحظ امرأة في سن معين تدخل المقهى، الشعر الأبيض مقطوع بشكل مربع، وكانت تسير بخطوات متصلبة وهي تمسك بذراع فتاة. كانت ترتدي سروالا أسود وسترة واقية من المطر لونها بني فاتح. أعانت

Twitter: @ketab_n

الفتاة المرأة على الجلوس إلى الطاولة الموجودة في الداخل وبعد ذلك أخذت مكانها بجوارها على المقعد. لم تنزع المرأة سترتها الواقية من المطر.

تطلع إليها أول الأمر كما فعل مع بقية الزبائن: نظرة خاطفة، نظرة سريعة تنتقل من وجه، إلى أحد المارة خلف الواجهة الزجاجية، ومن هناك، إلى كنيسة سانت جون دو شانتال. مدت الفتاة مذكرة إلى المرأة ذات الشعر الأبيض، وهكذا دونت هذه الأخيرة بعض الكلمات بيدها اليسرى. كانت دوما تثيره هذه الوضعية الخاصة لدى الأشخاص الذين يستعملون يدهم اليسرى، تكاد القبضة تكون مغلقة حينما يكتبون. هل كان هذا ما أثار لديه شجونا. حدق في وجه هذه المرأة و، بغتة، بعد مرور سنوات عديدة، ظن أنه تعرف إليها. يفون غوشي. ذات زوال بينما كانا، هو ومارغريت، يقومان بزيارتها، لاحظ أنها تكتب بيدها اليسرى. كان قد قال لها: «اسم على مسمى.»

مرت عشرات وعشرات السنين، منذ... كَون يفون غوشي لا تزال على قيد الحياة، على بعد أمتار قليلة منه، وأنه يكفي فقط أن ينهض من مكانه وأن يتحدث إليها ـ لكنه لا يذكر إذا ما كان يناديها باسمها الشخصي آنذاك ـ ولد لديه شعورا غريبا. كان عاجزا عن السير نحوها. على أي، لن تتعرف علي، قدر. وحتى إذا ما أخبرتُها باسمي واسم مارغريت، فلن يثير هذا أي شيء بالنسبة لها. بعض اللقاءات التي تعود إلى السنوات الأولى من مرحلة شبابك تبقى حاضرة في الذهن. في هذا العمر، كل شيء يثير دهشتك ويبدو

Twitter: @ketab_n

جديدا... لكن كل أولئك الذين واللواتي التقيتَ بهن وقضوا جزءا من حياتهن، لا يمكنك أن تطلب منهم أن يتذكروا الأمور بكل دقة كما هو الحال بالنسبة لك. فنحن، مارغريت وأنا، لم نكن سوى شخصين شابين ضمن أشخاص آخرين كانت قد التقت بهم بشكل عابر. وهل كانت تعرف أسماءنا العائلية والشخصية خلال تلك الفترة؟

كانت تلتفت بين الفينة والفينة صوب الفتاة على ذلك النحو المتجمد الذي لاحظه بوسمان في طريقة سيرها. قبل قليل كانت تمسك بذراعها وتتوكأ عليها. كانت خطواتها بطيئة جدا، كما أن الفتاة كانت قد أعانتها على الجلوس على المقعد. لقد فقدت البصر، خمن بوسمان. ولكن لا، فقد كانت تقرأ بطاقة الوجبات. لعلها الشيخوخة بكل بساطة.

لو أنني لم أشعر بذلك النوع من التضايق قبل قليل، لكانت لدي الشجاعة للذهاب إليها والحديث إليها مع وجود إمكانية عدم تعرفها علي. ربما تقطن جادة دود دو لا برونري، ضمن المئات والمئات من الأشخاص الذين يقيمون في تلك المباني الضخمة. يفون غوشي. الآنسة كليمون. ها هي ذي أسماء لا تثير الاهتمام، أسماء محايدة بحيث أن الأشخاص الذين يحملونها يصبحون رويدا رويدا مجرد نكرات.

لم يستطع أن يكف عن النظر إلى يفون غوشي. كان يخشى أن يثير انتباهها. ولكن لا. فقد كانت تتحدث إلى الفتاة، وكانت بعض الكلمات تتناهى إلى بوسمان ـ خصوصا ما تنبس به الفتاة،

Twitter: @ketab_n

بصوت في غاية الوضوح. لم ترفع التكلف بينها وبين يفون غوشي. وهكذا كانت تسألها: «هل ستحتفظين بسترتك الواقية من المطر، سيدتي؟» وكانت يفون غوشي تهز رأسها علامة التأكيد. كان وجهها مَسرحا لغضون كثيرة شأنها شأن أولائك الأشخاص الذين يصطلون بلفح الشمس في فترات شبابهم. تذكر بوسمان بويافال وسحنته الضامرة عند الوجنتين. لكن الأمر هنا، خمن بوسمان، مخالف. إذا ما تلاشت الغضون فسأجد الوجه الناعم لتلك المرأة حينما تعرفنا إليها، أنا ومارغريت، أول مرة.

وحده الصوت أقض مضجعه، أو بالأحرى تلك العبارات النادرة التي كانت عبارة عن إجابات مقتضبة عن التساؤلات التي توجهها لها الفتاة. كان الصوت خشنا. كان ينثال من مسافة بعيدة وقد تعرض لخدوش الزمن. تمكن بوسمان من التقاط عبارة كاملة: «علي أن أعود حوالي العاشرة.» ربما كانت تقيم في دار للعجزة حيث على القاطنين أن يلتزموا بمواعيد محددة.

وضع النادل عصير رمان وكعكة من التفاح أمامها. كانت الفتاة قد طلبت مشروب كوكا كولا. تبادلا كلمات بصوت خفيض. من جديد، مدت لها الفتاة المذكرة حيث قامت بتصفحها كما لو كانت تبحث عن تاريخ موعد ما. بسبب ياقة واقيتها المطرية المرفوعة إلى الأعلى، فقد كانت تبدو كما لو أنها توجد في قاعة انتظار وبأنها ترنو إلى مواعيد القطارات.

«يجب أن أعود حوالي العاشرة.»

كان بوسمان يعلم بأن هذه العبارة ستبقى عالقة في ذهنه

Twitter: @ketab_n

وبأنها، كل مرة، ستولد لديه إحساسا مؤلما، شعور ما بالوخز في جنبه. لن يعلم أبدا ما كانت ترمي إليه وسيشعر بالحسرة، كما هو الشأن بالنسبة للكلمات الأخرى التي لم تكتمل، الأشخاص الآخرين الذين تركتَهم يفرون. إنه الغباء، ما عليه إلا أن يقوم بخطوة واحدة. علي أن أتحدث إليها. تذكر اللوحة النحاسية التي شدت انتباههم، هو ومارغريت، المرة الأولى، حيث طبع اسمان: يفون غوشي. أندري بوتريل. بسببهما، كانت مارغريت قد غادرت باريس في فوضى دون أن يعلم أبدا شيئا عما جرى. لاحقا، اشترى الجرائد وكان يبحث في الصفحات الخاصة بالمنوعات عن هذين الاسمين: يفون غوشي. أندري بوتريل. لا شيء. الصمت. العدم. غالبا ما تساءل إذا لم تكن مارغريت على دراية أكبر بالوقائع ومجريات الأحداث. يذكر ما أخبرته به يفون غوشي خلال لقائهم الأول: «سيشرح لك أندري كل شيء.» غير أن أندري لم يشرح له أي شيء. لم يكن هناك متسع من الوقت. بعد مرور سنوات، كان قد مر أمام الجادة 194 فيكتور هيغو. لقد أصبح هذا الرقم الآن رقم بناية ضخمة جديدة ذات مشربيات زجاجية. يفون غوشي. أندري بوتريل. بدا الأمر كما لو أنهما لم يوجدا قط.

كانت يفون غوشي تتصفح مذكرتها وكانت الفتاة تهمس لها بشيء ما. ولكن نعم. كل ما علي القيام به هو خطوة واحدة. سأسألها عن أندري بوتريل والصغير بيتر. الصغير بيتر. هكذا كانا يلقبانه. مارغريت وأنا كنا نناديه فقط ببيتر. ستمدني أخيرا بكل التفسيرات منذ البداية، منذ الفترة البعيدة ل «أولائك الذين ضمهم

Twitter: @ketab_n

شـارع بلو...» لكن من المسـتحيل النهوض، شـعر بثقل رصاصي يشده إلى مكانه، ليس لدي ما يكفي من الشجاعة. من الأفضل أن تبقـى الأمـور ضبابيـة. لو كان رفقـة مارغريت، لكانا قد توجها معا نحـو طاولـة يفون غوشـي. لكنه هنا، بمفـرده... ولكن، هل كانت هذه المرأة فعلا يفون غوشي؟ من الأفضل ألا يعرف المزيد. على الأقل، بوجود الشـك، يبقى هناك شـكل من الأمل، طريق للهرب نحو الأفق. سـنقول بأن الزمن لم يكمل بعد عمله التخريبي وبأنه لا تزال هناك مواعيد. علي أن أعود حوالي الساعة العاشرة.

كانت الفتاة ترشـف مشـروب الكوكا كولا بواسـطة قشـة. أما يفـون غوشـي فقـد نسـيت أمر الحلوى ومشـروب الرمـان وكانت تحدق مباشـرة أمامها. اسـتعاد بوسـمان نظرة السـنوات الخوالي، نظـرة تفيـض احتراسـا وصراحـة لشـخص، بالرغم من كل شـيء، يضـع ثقتـه فـي الحيـاة. خـلال لحظة ما، حطت هـذه النظرة عليه، لكن يبدو أنها لم تتعرف عليه.

Twitter: @ketab_n

من بين الاثنين، كان أندري بوتريل هو الذي التقى بهما أولا. كان بوسمان يوجد في مكتبة المنشورات القديمة لدار سابليي رفقة مارغريت. يذكر جيدا الزمن: ذات زوال بارد، سماء زرقاء مشمسة، وفسحة ربيع وسط زحف الشتاء، الموسم الذي يفضله، والذي لا يستمر أكثر من أيام قليلة، على فترات متقطعة، في شهري كانون الثاني وشباط. كانا قد قررا السير قليلا بمنتزه مونتسوري وكان بوسمان يستعد لوضع لوحة على الواجهة الزجاجية للباب تحمل كلمات تعود إلى زمن لوسيان هورنباخر: «الرجاء من الزبناء العودة لاحقا.» دخل رجل إلى المكتبة، شخص أشقر في حوالي عقده الرابع، يرتدي معطفا أزرق داكنا.

«أبحث عن كتاب قديم أنا مؤلفه.»

كان مظهر هذا الرجل يخالف مظهر الزبناء الذين يترددون عادة على المكتبة. هل هو المعطف الأزرق الداكن، الصنعة الراقية، الهيئة اللامبالية، الشعر الأشقر الذي يميل قليلا إلى التجعد؟ كان يشبه مايكل كاين، الممثل الانجليزي الذي يؤدي أدوارا كعميل سري في أفلام تدور أحداثها في لندن وبرلين. قدم نفسه إلى مارغريت وبوسمان وهو يصافحهما.

«أندري بوتريل.»

وهكذا قال بينما تعلو محياه بسمة ملؤها السخرية:

Twitter: @ketab_n

«هـذا الكتـاب، تنبهـت إلـى أننـي لـم أعـد أتوفر على نسـخة واحدة منه.»

كان في الجوار، بمحض الصدفة. وكان يرغب في معرفة إذا ما كانت دار النشر والمكتبة لا يزالان قائمين إلى اليوم. كان كتابه قد صدر بعد وفاة لوسـيان هورنباخر بسـنوات قليلة، حينما كانت منشـورات سـابليي تخطو بخطوات بطيئة، بحيث كانت تنشـر فقط ثلاثة مؤلفات في السنة.

رافق أندري بوتريل بوسمان إلى المرآب القديم الذي يستعمل كخـزان وهكـذا وجـدا نسـختين من كتاب: نادي أسـتارتي[1]. كانت الأغلفـة باهتـة، ولكـن بمـا أن ولا قارئـا واحـدا سـبق لـه أن قطع الصفحات، فإن هذان الجزءان الضئيلان حافظا على رونق الشباب. وبعـد ذلـك أخـذ الثلاثة فـي الثرثرة. كان بوسـمان قد أجاب على تسـاؤلات أندري بوتريل بشـأن المنشـورات القديمة لدار سـابليي. نعـم، لـم يكـن عملـه قـارا، وكذلك هو الشـأن بالنسـبة لمسـتقبل المكتبة. غالبا، ما يمر الزوال دون أن يتردد على المكتبة أي زبون. لكنـه يواصـل الحراسـة، فـي الأعلى، في المكتب العتيق للوسـيان هورنباخر. لكن إلى متى؟

استدار أندري بوتريل نحو مارغريت:

«وأنت، هل تشتغلين أيضا في المكتبة؟»

(1) جماعة فرنسـية تأسسـت حوالي 1920 من طرف «مريدي المرأة المقدسـة.» وهي جماعـة تجمـع فـي تعاليمها وطقوسـها بين علوم التنجيم والسـحر والممارسـات الجنسية.

Twitter: @ketab_n

كان الأستاذ فيرن وزوجته قد استغنيا عن خدماتها الأسبوع الماضي دون أدنى مبرر. كما أن صاحب وكالة ستيوارت لم يتصل بها هو الآخر بعد.

«إذن أنت مربية؟»

كان لدى، أندري بوتريل، على وجه التحديد، ابن وكان يبحث عن شخص يعتني به خلال ساعات النهار، وخلال المساءات التي يكون فيها خارج المنزل رفقة زوجته.

«إذا كان ذلك يعنيك...»

ردت مارغريت: «لما لا؟» وقد اندهش بوسمان لعدم ترددها في الجواب.

كان قد علق اللوحة: «الرجاء من الزبائن العودة لاحقا» وسارا معا حتى سيارة انجليزية يمكن رفع غطائها، كانت مركونة في زاوية جادة راي وشارع غازان. قبل أن يفتح باب السيارة، أخرج أندري بوتريل من إحدى جيوب معطفه بطاقة زيارة مهلهلة مدها إلى مارغريت.

«اتصلي بي إذا كان هذا العرض يثير اهتمامك...»

لمح أن بوسمان كان يمسك في يده النسخة الأخرى من كتابه، نادي أستارتي.

«خصوصا لا تجهد نفسك في قراءته. إنه إحدى عثرات الشباب.»

قبل أن ينطلق، أنزل زجاج النافذة ولوح بذراعه. أخذت السيارة تبتعد على طول منتزه مونتسوري.

Twitter: @ketab_n

قالت مارغريت: «شخص غريب.»

ألقت بنظرة على بطاقة الزيارة ثم سلمتها إلى بوسمان.

الدكتور أندري بوتريل

194 جادة فيكتور هيغو

باريس 16 ترو 32 49

نبست مارغريت: «إنه طبيب.»

على الهاتف، حدد الدكتور موعدا مع مارغريت خلال نهاية الزوال وقد أضاف بأن بوسعهما أن يأتيا «معا.» كانت البناية تقع في جادة 194، أسفل كل البنايات الأخرى، وبذلك تشكل نوعا من الفنادق الخاصة. عند المدخل، كانت لوحة تشير إلى الدكتور أندري بوتريل ـ يفون غوشي: الطابق الثاني.

كانت يفون غوشي هي التي فتحت لهما الباب. لاحقا، حينما تبادلا انطباعاتهما، اتفق الاثنان على أنها تختلف تماما عن الأستاذة فيرن. تخيلا مواجهة بين المرأتين. محال، خمن بوسمان، أن يلتقيا أبدا.

كانت امرأة سمراء بعينين شفافتين، وشعر مرصوص على شكل ذيل حصان. كانت ترتدي سترة من جلد الضبي وتنورة سوداء مشدودة عند خصرها وركبتيها. كانت تمسك بسيجارة. لم يكن بوسمان ومارغريت في حاجة إلى تقديم نفسيهما. كان الأمر يبدو كما لو لم أنها كانت تعرفهما منذ الأزل وقد ودعتهم فقط البارحة.

Twitter: @ketab_n

«لدى أندري بعض المرضى...لكن ذلك لن يستغرق الكثير...»

ثم قادتهم على طول رواق إلى غرفة لا شك أنها كانت غرفتها هي وأندري. جدران بيضاء. سرير عريض جدا وواطئ جدا. ليس هناك أي أثاث. جعلتهما يجلسان على طرف السرير.

«أعذراني، ولكننا لم نعد نشعر بالهدوء هنا...»

لاحظ بوسمان على إحدى الطاولات عند رأس السرير كتابا تعرف عليه بسبب غلافه الباهت: نادي أستارتي. كانت يفون غوشي قد لمحته وهو ينظر باتجاه المنضدة.

أخبرت بوسمان:

«لقد كان لطفا منك أن تمنحه ذلك الكتاب. لقد تأثر أندري لذلك كثيرا.»

ران صمت أراد بوسمان أن يقطعه. في الأخير قال، وهو يبتسم:

«لقد اعترف لي بأنه إحدى عثرات الشباب...»

بدا الحرج على يفون غوشي.

«أوه...لقد كانت فترة من حياتنا...لم نكن نأخذ احتياطاتنا... في الأخير، سيشرح لك أندري...»

ثم توجهت نحو الطاولة الأخرى الموجودة على رأس السرير حيث كانت توجد منفضة سجائر. أطفأت سيجارتها.

ثم توجهت إلى مارغريت: «كما سترين، الصغير بيتر طفل في غاية اللطف...»

وردت مارغريت: «أنا على يقين من ذلك.»

Twitter: @ketab_n

«هل أنت معتادة على الأطفال؟»

أجاب بوسمان: «نحن نحب الأطفال كثيرا.»

كان قد ردد هذه العبارة بعد ذلك بقليل، بحضور الدكتور أندري بوتريل. كانت مارغريت، ويفون غوشي وهو يتواجدون في جزء كبير من المنزل غطيت جدرانه بطلاء حيث كان يقوم باستشاراته الطبية. كان يرتدي قميصا أبيض، عقدت أزراره على جانب منه، وقد قدر بوسمان بأنه قد يكون طبيبا جراحا. غير أنه لم يجرؤ على سؤاله عن مجال تخصصه.

قالت يفون غوشي لمارغريت: «علي أن أعرفك على الصغير بيتر. سنذهب لاصطحابه من مدرسته.»

وبعد ذلك، وهي تلتفت نحو الدكتور بوتريل:

«لا تنس موعدك الأخير.»

لا بد أنها مساعدة زوجها ـ ولكن هل هي فعلا زوجته؟ لم يكن لهما نفس الاسم على اللوحة، عند مدخل المبنى. سألها عن الموعد الأخير. الساعة السابعة مساء.

رافقهم حتى باب الشقة.

أخبره بوسمان وهو يهم بمغادرة الشقة: «لقد قرأت كتابك.»

«حقا؟»

ألقى إليه الدكتور بوتريل ببسمة ساخرة.

«إذن فأنا أتحرق شوقا لمعرفة وجهة نظرك.»

وبعد ذلك أطبق الباب بلطف.

على الرصيف، كان بوسمان يسير بين مارغريت ويفون

Twitter: @ketab_n

غوشي. كانت الأخيرة إلى حد ما أطول قامة من مارغريت، وهذا بالرغم من كعب حذائها المستوي. لم يبد عليها أنها تشعر بلسعات البرد في سترتها الجلدية الخفيفة. كل ما قامت به هو أن رفعت الياقة. ركبا جميعا السيارة الانجليزية لليوم السابق. كانت مارغريت تجلس في المقدمة.

قالت يفون غوشي: «الصغير بيتر يوجد في مدرسة قريبة جدا، شارع مونتيفيديو.»

كان تقود السيارة بطريقة تجمع ما بين الكسل والتوتر. وقد بدا لبوسمان والسيارة تنهب طريق شارع مونتيفيديو أنها لم تحترم إشارة المرور.

أكاد أجهل كل شيء عن هؤلاء الأشخاص، قدر بوسمان. ومع ذلك، فإن نُتف الذكريات التي لا أزال أحتفظ بها تبدو واضحة إلى حد ما. لقاءات قصيرة حيث تلعب الصدفة والفراغ دورا أكبر قياسا بفترات أخرى في حياتك، لقاءات دون مستقبل، كما لو على متن قطار ليلي. غالبا ما تنشأ علاقة حميمية بين المسافرين على متن قطارات الليل خلال سنوات شبابه. بالطبع، ينتابني الإحساس بأننا لم ننقطع، أنا ومارغريت، على استقلال قطارات الليل بحيث أن هذه الفترة من حياتنا تتراءى متقطعة، فوضوية، تخترقها الكثير من الفواصل القصيرة جدا دون أن يكون هناك أدنى رابط بينها... وقد كانت إحدى رحلاتنا القصيرة التي أثرت في كثيرا تلك التي قمنا بها رفقة الدكتور بوتريل ويفون غوشي و«الصغير بيتر» ـ كما

Twitter: @ketab_n

كانوا يلقبونه ـ ولكننا نفضل، أنا وأنت، أن نلقبه بيتر، بكل بساطة.

يستحيل إحلال النظام في كل هذه الفوضى، بعد مرور أربعين سنة. كان عليه أن يقوم بذلك في فترة مبكرة. لكن كيف يمكن اليوم العثور على القطع الناقصة من اللعبة؟ يجب الاقتصار على تفاصيل قليلة، دائما التفاصيل ذاتها.

هكذا، كان قد حافظ، بالرغم من ترحاله من مكان لآخر، على كتاب أندري بوتريل: نادي أستارتي. ثمة إهداء مطبوع على الصفحة الأولى: «إلى موريس برايف وإلى اللواتي والذين ضمهم شارع بلو.» كان قد تصفح الكتاب الذي يبدو بصفحاته الأربعين على أنه بالأحرى كراسة وهو شارد الذهن. يدور موضوع الكتاب حول علوم التنجيم، وبحسب تقدير بوسمان، فإن أندري بوتريل، في كتاب نادي أستارتي، يمثل الناطق باسم مجموعة مستقلة للدراسات العليا في علوم التنجيم.

«إلى اللواتي والذين ضمهم شارع بْلو»... بالتأكيد، تتداخل الأمور في الأخير كما أن الخيوط التي كان الزمن قد نسجها كانت كثيرة ومتشابكة... مساء لقائهم الأول، كان هو ومارغريت قد انتهى بهما المطاف في صيدلية على شارع بلو. وبعد مرور عشرين سنة على ذلك، قام بزيارة الشقة في الطابق الأول، الرقم 27 من نفس الشارع. أخبره البواب، رجل طاعن في السن: «كما تعلم، كانت تجري أمور غريبة، هنا، خلال ذلك الزمن...» تذكر بوسمان الإهداء في الكتاب.

«هل تقصد السيد موريس برايف؟»

Twitter: @ketab_n

بـدت الدهشـة علـى محيـا الآخـر ذلك أنه لم يكـن يتوقع أن تكون لدى شـاب يافع مثل هذه الذاكرة القوية. قدم له تفسـيرات، لكنها لم تكن بالوضوح المطلوب. كان الشخص المدعو موريس برايـف يجمـع رجـالا ونسـاء هنا، في الشـقة 27 الواقعة في شـارع بلو، لممارسـة السـحر وتجارب أخرى تثير الشـبهات «من وجهة نظـر أخلاقيـة.» هل يتعلق الأمر بالقـداس الذهبي والتنقل القرباني الذيـن تمـت الإشـارة إليهمـا في كتاب نادي أسـتارتي؟ في الأخير تـم اعتقالـه رفقـة أعضاء المجموعـة. كان أجنبيا وهكذا تم ترحيله إلى بلده الأصلي.

سأل بوسمان، دون قصد:

«مـاذا عـن شـخص يدعى أندري بوتريـل، ألا يعني لك ذلك أي شيء؟»

هـز البـواب حاجبيـه كما لو أنـه يحاول تذكر أسـماء اللواتي والذين ضمهم شارع بْلو.

«أوه، كما تعلم، خلال المساء الذين جاؤوا لاعتقالهم، كان هنا عشرون شخصا على أقل تقدير. فوضى حقيقية، سيدي.»

خـلال الـزوال الأول الذي رافقت فيـه مارغريت الصغير بيتر إلى المنزل بهد انتهاء المدرسة، كان بوسمان يرافقها. كان الدكتور بوتريل في بهو الشقة.

«هكذا، لقد قرأت كتابي، أليس كذلك؟ ألم يصدمك؟»

كانت ابتسامة ساخرة ترتسم على محيّاه.

Twitter: @ketab_n

رد بوسمان: «لقد أحببته كثيرا. أنا مهتم كثيرا بعلوم التنجيم... لكنني لم أستوعب الكثير مما جاء فيه...»

شعر بالحسرة لأن نبرته كانت إلى حد ما ساخرة. على أي، لقد جارى فقط طريقة الآخر في الحديث. كانت هذه هي النبرة التي يعتمدها غالبا الدكتور بوتريل للحديث معه. هذا الكتاب... إحدى عثرات الشباب، كان بوتريل يردد وهو يضع يده على كتف الصغير بيتر. كان يبتسم. كان قد أخبر بوسمان أيضا، وهو لا يزال يستعمل أسلوب الدعابة:

«أشعر بالراحة لأن كل النسخ نفدت من مكتبتك. من الأفضل التخلص إلى الأبد من كل إثباتات الاتهام.»

خلال المساء، بأوتوي، بحانة جاك الجزائري، شرحت له مارغريت بأن أولياء نعمتها الجدد ـ هكذا كانت تدعوهم ـ يختلفون تماما عن الأستاذ فيرن وزوجته. حسب ما فهمته، كان الدكتور بوتريل يعمل مجبرا للعظام. كانا قد بحثا في قاموس عن تعريف للعبارة و، بعد مرور أربعين سنة على ذلك، بدت محاولتهم لبوسمان ساذجة إلى حد ما...كما لو يمكن تحديد عن طريق تعريف محدد جدا شخصا مثل أندري بوتريل، بالطريقة ذاتها التي يمكن من خلالها لجامع تحف أن يعلق بدبوس فراشة في صندوق... كان الدكتور قد دفع لمارغريت مسبقا أجر الشهر بطريقة غريبة: شاهدته يخرج من جيبه مجموعة من الشيكات التي طويت أطرافها واختار واحدا كان زبون قد وقعه له وهكذا أضاف اسم مارغريت عليه وهو يخبرها بأن تقصد مصرفا للحصول على

Twitter: @ketab_n

المبلغ نقدا، على مسافة قريبة جدا، على جادة فيكتور هيغو. وقد كان هذا الأجر يساوي ثلاث مرات الأجر الذي كانت تتقاضاه لدى الأستاذ فيرن. على ما يبدو، كانت يفون غوشي مساعدة الدكتور، حيث كانت تقيم بمفردها في مكتب للاستشارة يوجد في طرف الشقة. لا يلتقي المرضى أبدا في قاعة الانتظار ولا توجد إمكانية لكي يلتقي بعضهم البعض: يتم إخراجهم عبر ممر طويل يؤدي مباشرة إلى سلالم مبنى آخر. لماذا؟ من باب الفضول، سلكتْ هذه الطريق رفقة الصغير بيتر، وهكذا انتهى بهما المطاف في شارع لا فيزاندري. على أي، كان هذا الطريق أقصر لمرافقته إلى المدرسة.

«لقد سلمني الدكتور قائمة بكتب بإمكانك البحث له عنها في المكتبة.»

وهكذا سلمت له ورقة للرسائل، لونها أزرق خفيف، طويت على أربعة مع اسميهما بحروف عائمة: الدكتور أندري بوتريل/ يفو غوشي.

حسب مارغريت، كان الصغير بيتر يختلف كثيرا، هو الآخر، عن أطفال الأستاذ فيرن. كانت تتساءل إذا ما كان فعلا ابن الدكتور فيرن ويفون غوشي أو أنه ابنهما فقط بالتبني. ظاهريا، لا يشبه أي واحد منهما.

في مدرسة مونتيفيديو، أخبرت المدرسة مارغريت بأنه يكون شارد الذهن في الفصل. كان يقضي وقته في الرسم في مذكرة جلدية، دون أن يعير بالا للدروس. لم تجرؤ على إخبار الدكتور بوتريل أو يفون غوشي مخافة أن يقوما بتأنيبه. لكنها فطنت بسرعة

Twitter: @ketab_n

لخطئها. لقد كان الدكتور هو الذي أهداه هذه المذكرة الجلدية وكانت قد شاهدته، مرات ومرات، وهو يتصفحها بانتباه حينما يكون برفقة الطفل.

كان الصغير بيتر قد عرض عليها هي الأخرى المذكرة السوداء: رسومات لأشخاص ومناظر طبيعية متخيلة. عند مغادرة المدرسة، كان يمسك بها بهمة من ذراعها ويسير هكذا، مستقيما وصامتا، إلى جانبها.

ذكريات على شكل غيوم سارحة في حقول السماء. كانت ذكريات تنساب لتلحق بذكريات أخرى بينما كان هو يتمدد على الأريكة، عند بداية الزوال، أريكة تجعله يستحضر تلك الأريكة التي كانت موجودة بمكتب لوسيان هورنباخر. كان يحدق في السقف، كما لو كان ممددا على عشب في حقل. وكان يشاهد الغيوم وهي تمر هاربة أمامه.

ذات يوم أحد، دعاهم الدكتور بوتريل ويفون غوشي لتناول الغداء مع الصغير بيتر في جزء من المنزل لم يسبق لبوسمان أن ارتاده. ثمة طاولة خاصة بالحدائق إضافة إلى مقاعد من الحديد تناسبها، لونها في نفس اللون الأخضر الفاتح. بدا الأمر كما لو أن الطاولة والكراسي تم وضعها مؤقتا في هذه الغرفة الكبيرة الفارغة.

قال الدكتور بوتريل: «لا زلنا نصطاف هنا قليلا.» ثم واصل: «لم نقم هنا منذ مدة طويلة.»

لم تندهش مارغريت أو بوسمان بسبب ذلك. بعد كل هذه

Twitter: @ketab_n

السنين، كان بوسمان يرى أن الدكتور بوتريل، ويفون غوشي والصغير بيتر يبدون كما لو أنهم اقتحموا هذه الشقة عُنوة وأنهم كانوا يقطنون هنا بطريقة غير شرعية. وأننا نحن الاثنان، كنا نصطاف نحن الآخران دون ترخيص من أي أحد. ترى ما هو السر، في حيواتنا، لهذا الاطمئنان الثابت وهذا الإحساس بالشرعية الذي كنت قد لاحظته لدى الأشخاص الذين ولدوا بشكل صحيح، والذين من خلال شفاههم ونظراتهم التي تنطق اطمئنانا يشيرون إلى أنهم كانوا محبوبين من طرف آبائهم؟ في العمق، فنحن جميعا: الدكتور بوتريل، يفون غوشي، الصغير بيتر، أنت وأنا، ننتمي إلى نفس العالم؟ لكن أي عالم؟

كانت يفون غوشي ترتدي سروالا أسود ضيقا وشباشب. وكان بوسمان يجلس بينها وبين مارغريت. بشعرها الأسود الذي وضع على شكل ذيل حصان، بالكاد تبدو أكبر سنا من مارغريت، ومع ذلك، في اليوم السابق، كانت قد أومأت إلى بوسمان بأنها تعرف الدكتور بوتريل منذ الفترة البعيدة ل «اللواتي والذين ضمهم شارع بلو.»... بعد التحلية أخذ الصغير بيتر بالرسم على صفحات مذكرته الجلدية.

أخبر الدكتور بوتريل مارغريت: «إنه يقوم بوضع رسم لك.»

كان الجو رائعا ذلك الزوال. سارا حتى غابة بولون. كان الدكتور يمسك يفون غوشي من ذراعها. كان بيتر يركض أمامهم وقد حرصت مارغريت على اللحاق به حتى لا يقطع بمفرده الجادة دون أن ينتظر تغير إشارة المرور. تأثر بوسمان كثيرا لجمال

Twitter: @ketab_n

وللامبالاة يفون غوشي، وهي تمسك بذراع بوتريل. كان على يقين بأنها كانت راقصة.

كانا قد بلغا حافة البحيرة. كانت يفون غوشي ترغب في لعب جولة من الغولف المصغر مع الصغير بيتر، هناك، على الجزيرة، لكن العديد من الأشخاص كانوا ينتظرون على الجسر العائم الباخرة التي تنتقل من ضفة إلى أخرى.

نبس الدكتور بوتريل: « مرة أخرى.»

في طريق العودة، كان الصغير بيتر يركض مرة أخرى أمامهم، لكن مارغريت لم تعد تلاحقه. كان يختبئ وراء شجرة وكانوا، أربعتهم، يتظاهرون بأنهم لا يعرفون مكانه.

وعلى حين غرة سأل الدكتور بوتريل كلا من بوسمان ومارغريت: «وأنتم، كيف تتصورون المستقبل؟»

ابتسمت يفون غوشي بسبب هذا السؤال. المستقبل... كلمة يبدو جرسها لبوسمان اليوم مؤلما وغامضا. لكن، في تلك الأثناء، لم يخطر ببالنا ذلك أبدا. كنا لا نزال، دون أن نأخذ في الحسبان حظنا، نحيا في حاضر سرمدي.

كان بوسمان لا يدري عمر بيتر حينها: مابين ست وثماني سنوات؟ لا يزال يذكر العينين الكحيلتين، خصلات الشعر السمراء، طابعه الحالم ووجهه المحني على مذكرته الجلدية. صحيح، لم يكن يشبه كثيرا والديه. هل كانا فعلا أبويه؟ وهل كانا فعلا زوجين كما يذكر مأمورو الحالة المدنية؟

Twitter: @ketab_n

يذكر بعض النزهات التي كان يقوم بها رفقة مارغريت وبيتر، يوم الخميس، حينما لا يذهب إلى مدرسة مونتيفيديو. كان ثلاثتهم يسيرون في شوارع أوتوي، بالقرب من المكان الذي تقيم فيه مارغريت. أو بمنتزه مونتسوري. بعد أن اختفت مارغريت، دون أن يدري إذا ما كانت على قيد الحياة أو ماتت، غالبا ما يتذكر هذه النزهات.

يالها من صدفة غريبة أن يجتمع ثلاثتهم، خلال بعض فترات الزوال... في منتزه مونتسوري، كانا قد قررا أن يراقب، كل واحد على حدة، بيتر لمدة نصف الساعة بينما يمكن للآخر أن يقرأ أو أن يطلق العنان لخياله. مرة، بسبب السهو، كادا أن يفقدا بيتر في ممر البحيرة. مع أن سنهما كان يؤهلهما هما الآخران ليكونا والدين.

Twitter: @ketab_n

مثل ذلك اليوم بالنسبة لبوسمان نهاية شيء ما. كان يتساءل غالبا: لكن في أي موسم كان ذلك؟ بالطبع، يمكنه الرجوع إلى التقويمات القديمة. بواسطة علامات محددة لا يزال يحتفظ بها في ذاكرته، سينتهي به المطاف إلى أن يعثر على اليوم والفصل المحددين. لابد أن يكون ذلك ربيع الشتاء، كما كان يدعو الأيام الرائعة لشهري كانون الثاني وشباط. أو صيف الربيع حينما يكون الجو شديد الحرارة في شهر نيسان. أو ببساطة الصيف الهندي، خلال موسم الخريف ـ كانت كل هذه الفصول تتداخل فيها بينها وتمنحك الشعور بأن الزمن قد توقف.

كان يبحث ذلك الزوال في المخزن عن الكتب التي كان الدكتور بوتريل قد دون له قائمة لها على ورق الرسائل الخاص به:

ـ تاريخ مجموعة كومريس لتينيا فيري.

ـ الدليل السنوي لفرسان نظام البجعة

ـ المرأة، إيقاعاتها وطقوس الحب لديها لفالنتان بريستل.

ـ أخوية هيليوبوليس لكلود ييغي.

ـ الوحدة الصامتة لهوركوود.

ـ الأحلام وسبل اقتيادها لهيرفي دو سانت دينيس.

تناهى إليه صوت الجرس الحاد وهو يعلن قدوم زبون إلى المكتبة.

Twitter: @ketab_n

كانت مارغريت، وقد بدا الاضطراب على محياها. كانت تجد صعوبة في الحديث. قبل قليل، كانت في الشقة رفقة الدكتور بوتريل، ويفون غوشي والصغير بيتر. كانت على أهبة مرافقة بيتر إلى المدرسة. رن الجرس. ذهب الدكتور بوتريل لفتح الباب. كانت هناك قرقعة أصوات. في البهو، كان الدكتور بوتريل يردد بصوت يعلو شيئا فشيئا: «بالتأكيد لا... بالتأكيد لا.» دخل إلى غرفة الاستشارات رفقة ثلاثة رجال كانوا يحملون أصفادا. كانت يفون غوشي تقف مستقيمة، هادئة الأعصاب. ضغط الصغير بيتر بقوة كبيرة على يد مارغريت. توجه أحد الرجال نحو يفون غوشي وأخرج بطاقة من جيب سترته، مدها لها وهو يقول: «ستلحقين بنا سيدتي...» لم يضعا لها أصفاد. أخذ الاثنان الآخران الدكتور بوتريل خارج هذا الجزء من المنزل، بينما جلست يفون غوشي إلى المكتب، يراقبها عن كثب الرجل الثالث. خطت بعض الكلمات على ورقة طبية مدتها إلى مارغريت.

«ستأخذين بيتر إلى هذا العنوان.»

قبلت بيتر دون أن تنبس بأي شيء، ثم غادرت المكان بينما يتبعها الرجل، وكانت تخطو بينما تحافظ على تماسكها وهدوئها المعهودين، كما لو كانت شخصا مسرنما.

خلال المساء، رافق مارغريت إلى محطة الشمال. كانا قد قصدا غرفتها بأوتوي حيث وضبت حقيبتها على عجل. عهدت له بمفتاح الغرفة حتى إذا ما نسيت شيئا ما فيمكنه العودة إلى الغرفة لاستعادته لاحقا. لا يذكر إذا ما كانت قد أخذت تذكرة

Twitter: @ketab_n

القطار الليلي من الدرجة الثانية لبرلين أو تلك الخاصة بهامبورغ. سينطلق القطار على الساعة التاسعة. لا يزال لديهم ساعة قبل موعد الانطلاق. جلسا قبالة بعضهم البعض في الجزء الخلفي من مقهى، شارع ماغانتا، وأرته الورقة التي كان قد سلمها لها أحد الرجال الذين قادوا الدكتور بوتريل ويفون غوشي. عليها أن تقصد في الغد رصيف الأورفيفر. كان عليها أن تريه جواز سفرها الذي انتهت صلاحيته والذي تحمله دائما معها وقد دون الرجل اسمها ورقم جوازها. كان بوسمان يحاول من جديد أن يهدئ من روعها وأن يقنعها بالبقاء في باريس. ولكن لا، جون، لا يمكن ذلك. إنهم يعلمون أشياء عني لم أخبرك بها وتوجد في ملفاتهم. تفضل أن تتوارى عن الأنظار بدل الذهاب إليهم. على أي، لا يمكنها أن تخبرهم أي شيء بخصوص الدكتور بوتريل ويفون غوشي. فهي لا تعلم أي شيء. لم تعلم أبدا أي شيء. ثم إنني، على أي حال، لا أعلم ما الذي أعلمه. لقد حسمتْ أمرها، منذ مدة، ألا تجيب على التساؤلات. صدقني، جون، إنهم حينما يعتقلون أشخاصا مثلنا، فإنهم لا يطلقون سراحهم أبدا.

كان لا يزال يحتفظ، بعد مرور كل هذه السنين، بحوالي عشرين كتابا من منشورات سابليي كان قد وضعها في كيس كبير من الكتان في اليوم الذي أعلموه بنهاية عمله لديهم. سيتم تشييد بناية مكان المكتبة والمرآب العتيق الذي يستعمل كمخزن. ضمن هذه الكتب، كانت هناك المؤلفات الخاصة بعلوم التنجيم التي لم يتمكن من حملها إلى الدكتور بوتريل.

Twitter: @ketab_n

وهو يبحث في إحداها، عثر على ورقة طبية خاصة بالدكتور بوتريل. يمكن قراءة هذه الكلمات بالحبر الأزرق وبأحرف كبيرة: «اللقاء لدى الآنسة سوزان كراي. 32 شارع المفضلين، باريس المقاطعة 15.» بالرغم من كل هذا الوقت، يبدو له أن الحبر لا يزال يحافظ على طراوته. لم يكن قد فات الأوان لحضور الموعد. بمحطة الشمال، قبل أن تصعد القطار الليلي، كانت مارغريت قد سلمت له هذه الورقة: العنوان المكتوب على عجل من طرف يفون غوشي وحيث كان عليها أن تأخذ بيتر، ذلك الزوال. كان بوسمان قد بقي معها للحظة في المقصورة. ما أن تصل إلى هامبورغ أو برلين، فستعلمه بعنوانها وسيلحق بها. من الأفضل، أخبرها، أن ترسل له رسالة أو أن تتصل به هاتفيا على مكتبة منشورا سابليي، كوبلان 43 76. لكن السنوات مرت ولم يتوصل بأي رسائل أو مكالمات هاتفية.

منذ أن تم إعفاؤه من العمل وغادر إلى الأبد المكتب العتيق للوسيان هورنباخر وهو يحمل كيسه المليء بالكتب، كان يراوده نفس الحلم. كان الهاتف يرن طويلا في المكتب المهجور، كان يسمع الرنات وهي تأتي من بعيد، لكنه لا يجد طريقه إلى المكتبة، كان يضيع وسط متاهة من الشوارع الصغيرة في حي من أحياء باريس لا يعرفه والذي كان عبثا يحاول أن يحدد مكانه على خريطة حينما يكون يقظا. لاحقا، لم تعد تطرق سمعه أية رنة هاتفية في أحلامه. لم يعد عنوان مكتبة سابليي قائما كما أن الرسائل القادمة من هامبورغ أو برلين لن تجد أبدا طريقها إلى نهايتها. كما أن وجه

Twitter: @ketab_n

مارغريت أخذ هو الآخر في الأخير بالابتعاد والتلاشي في الأفق، كما المساء، بمحطة الشمال، حينما أخذ القطار يهتز وحنت جذعها فوق النافذة الزجاجية ولوحت له قليلا بذراعها. هو الآخر، في السنوات الغامضة التي تلت، كان يستقل الكثير من قطارات الليل...

لم يكن يعرف هذا الشارع. مع أنه كان يتردد على هذا الحي خلال فترات كثيرة من حياته، وكان غالبا يهبط في محطة فولنتير. تساءل لماذا، بعد مغادرة مارغريت، لم يسع إلى معرفة مصير الصغير بيتر وأبويه الغريبين. للحظة، انتابه شعور عميق من الفراغ بسبب انقطاع أخبار مارغريت... ثم، شيئا فشيئا، أخذ النسيان مع مرور الوقت اليد العليا.

32 شارع دي فافوريت. خمسة طوابق. بقي هنا، على الرصيف المقابل، وهو يتأمل الواجهة. يستحيل إثارة انتباه المارة. ذات يوم سبت زوالا. كان الشارع مقفرا. في حياة أخرى وفي قرن آخر، إلى أي طابق كانت مارغريت قد صعدت رفقة الصغير بيتر لتضعه في عهدة المدعوة سوزان كراي؟ في كل طابق توجد خمس نوافذ، وتلك التي توجد وسط الواجهة، كانت بارزة فوق باب المدخل. شرفات، سطوح، في الطابق الخامس.

قرع باب حارس العمارة.

«ألا تزال الآنسة سوزان كراي تقيم هنا؟»

امرأة في حوالي الثلاثين من عمرها. بدا عليها أنها لم تفقه أي شيء مما نبس به. حدقت فيه بارتياب. تهجى لها الاسم. هزت رأسها علامة النفي. ثم أطبقت باب بيتها.

Twitter: @ketab_n

انتظر هناك، لكن دون جدوى. في الخارج، بقي للحظات أمام الواجهة. أشعة شمس. كان الشارع هادئا. كان على يقين، خلال هذه اللحظات، بأنه يكفي أن يبقى مرابطا في مكانه وسيخترق بهدوء جدارا غير مرئي. ومع ذلك، فقد كنا دائما في المكان ذاته. سيحافظ الشارع على هدوئه وأشعته الشمسية. ما حدث مرة يمكن أن يتكرر إلى ما لا نهاية. من هناك، عند طرف الشارع، ستتقدم مارغريت نحوه ونحو المبنى 32، وهي تمسك بيدها الصغير بيتر ـ الولد الصغير، كما كانت تقول.

Twitter: @ketab_n

كان فصل الصيف قد حل في برلين. حتى ساعة متأخرة من الليل، كانت عربات الترام تمر وهي تخط خطا عريضا وتنعطف من شارع تسيونسكورش وممر كاستانيين. كانت العربات تقريبا فارغة. قدر بوسمان أنه يكفي أن يستقل واحدة منها، عن طريق الصدفة، ليلتحق بمارغريت. سيشعر حينها كما لو كان يعود بالزمن إلى الوراء. كان كل شيء أكثر بساطة مما كان يعتقد. في باريس، كان قد حاول أن يكتب اسم لو كوز، ثم مارغريت لو كوز على لوحة الحاسوب، لكن دون جدوى. ما بين اليقظة والنوم، كانت عبارات تعود إلى ذهنه، كتلك التي تلاحقك، على شكل مِزق، خلال الليالي التي تصيبك فيها الحمى: «إذن، أنت من مواليد بروتان؟ لا، أنا من مواليد برلين.» على لوحة الحاسوب، جمع مارغريت لو كوز وبرلين. إجابة وحيدة وسط الشاشة: مارغريت لو كوز ـ مكتبة لاديجنيكوف، شارع ديفنباخ، الهاتف/ الفاكس: 30.44.05.60.15 49.0.لم يتصل. لم يستقل أية واحدة من عربات الترام الفارغة التي تمر خلال الليل. ولا قطار الأنفاق. سيسير مشيا.

كان قد انطلق، خلال أول الزوال، من حي جبل برينتسلاور، وهو يضع خارطة لبرلين في جيبه. كان قد خط الطريق بواسطة قلم أحمر. أحيانا، كان يتيه. وهو يهبط ممر برينتسلاور، كان يردد في

Twitter: @ketab_n

داخله بأنه يمكنه أن يتتبع شارعا، على اليسار، وبأن هذا الشارع سيكون مختصرا. انتهى إلى غابة صغيرة تتخللها قبور. على الممر الرئيسي لهذه المقبرة الغابوية، مرت بمحاذاته فتاة تركب دراجة، وقد جلس في المكان المخصص للأمتعة طفل. على طول ممر كارل ماركس، لم يكن فعلا يشعر بالغربة، بالرغم من الجادة العريضة جدا والبنايات الإسمنتية بمظهرها الذي يشبه ثكنات عملاقة. لكن لهذه المدينة عمري. أنا الآخر، حاولت أن أشيد، خلال العشرات من السنين، شوارع مستقيمة الزوايا، واجهات مستقيمة جدا، أعمدة علامات لمداراة المستنقع والفوضى الأصليين، الآباء السيئون، عثرات الشباب. ورغم ذلك، من وقت لآخر، أقع على أرض غامضة تجعلني أستشعر على حين غرة غياب شخص ما، أو على طابور من البنايات القديمة تحمل واجهاتها جروح الحرب، كحَسرة. لم يعد بحاجة لتصفح الخريطة. كان يسير إلى الأمام، عبر جسر السكك الحديدية، ثم جسر آخر على ساحة سبري. وإذا انحرف عن الطريق، فالأمر سيان.

على حافة منتزه غورتليزر، كان مجموعة من الشباب يجلسون إلى طاولات المقاهي، وسط الرصيف. من الآن فصاعدا، سنكون، أنا ومارغريت، السكان الأكبر سنا لهذه المدينة. قطع المنتزه الذي بدا له للوهلة الأولى مكانا مفتوحا وسط الأشجار، وبعد ذلك أرضا غامضة لا تنتهي. في الماضي، كانت، هنا، محطة حيث من الممكن أن تكون مارغريت قد غادرت على متن قطار ليلي. لكن كيف له أن يعرف ذلك؟ كان كل شيء ضبابيا في رأسه. كان يتبع

Twitter: @ketab_n

الآن القناة، تحت الأشجار، وكان يتساءل إذا لم يكن على ضفة نهر المارن.

كان قد قطع جسرا صغيرا. أمامه، توجد ساحة حيث يلعب أطفال. جلس إلى طاولة في سطح مطعم للبيتزا حيث يشاهد الجسر، البنايات والأشجار التي تحد القناة، على الضفة الأخرى. كان قد سار لمسافة طويلة. كان يشعر بالألم في سيقانه.

في الطاولة المجاورة كان يجلس رجل في حوالي الثلاثين من عمره كان قد أغلق للتو كتابا له عنوان انجليزي. سأله بوسمان عن الطريق إلى شارع ديفنباخ. على مسافة قريبة جدا، الشارع الأول يسارا.

«هل تعرف مكتبة لاديجنيكوف؟»

كان قد طرح عليه السؤال باللغة الانجليزية.

«نعم، أعرفها جدا.»

«الشخص الذي يدير المكتبة امرأة، أليس كذلك؟»

«بلى. أعتقد أنها من أصل فرنسي. إنها تتكلم الألمانية بنبرة فرنسية خفيفة جدا. اللهم إذا كانت روسية...»

«هل أنت أحد زبائنها؟»

«منذ عامين. كانت قد استرجعت المكتبة الروسية القديمة، بالقرب من ساحة سافنيي. وبعد ذلك جاءت إلى هنا.»

«ولماذا تحمل المكتبة اسم لاديجنيكوف؟»

«لقد حافظت على اسم المكتبة الروسية القديمة، اسم ما قبل الحرب.»

Twitter: @ketab_n

كان هـو الآخـر أمريكيـا، لكنـه كان يعيش منذ مدة في برلين، في مكان لا يبعد كثيرا عن هنا، بالقرب من شارع ديفنباخ.

«لديها دوما كتب ووثائق هامة جدا عن برلين.»

«كم هو عمرها؟»

«في نفس عمرك.»

لم يعد بوسمان يذكر عمره.

«هل هي متزوجة؟»

«لا، أظن أنها تعيش بمفردها.»

نهض وصافح بوسمان.

«سأرافقك إلى المكتبة، إذا أردت...»

«لن أذهب حالا. سأبقى هنا قليلا تحت أشعة الشمس.»

«إذا ما كنت بحاجة إلى معلومات أخرى... أشتغل على كتاب عـن برليـن...» ثـم مد لـه بطاقة زيارة. «أكاد أكون دائما في الحي. انقل تحياتي إلى صاحبة المكتبة.»

تتبعه بوسـمان بنظره. اختفى في زاوية شـارع ديفنباخ. كانت بطاقته تحمل اسم رود ميلر.

لاحقا، سيدخل إلى المكتبة. لن يعرف كيف يدير دفة الحديث جيـدا. ربمـا لـم تتعرف إليه. أو أنها نسـيته. في الواقع، فقد تعارفا لفترة وجيزة. سيقول لها:

«أنقل لك صداقة رود ميلر.»

كان يسـير على طول شـارع ديفنباخ. انشـقت السـماء بسيول من مطر، أمطار صيفية كان عنفها يخبو وهو يسـير ويحتمي تحت

Twitter: @ketab_n

الأشجار. لفترة طويلة، كان يظن أنها ماتت. لا يوجد سبب لذلك، بالطبع لا، لا يوجد سبب لذلك. حتى في سنة ميلادنا نحن الاثنين، حينما كانت هذه المدينة، وهي تُشاهد من الأعلى، مجرد ركام من الأنقاض، كانت أزهار اليلج تزهر وسط الخراب، وسط الحدائق.

كان قد هده التعب بسبب سيره طويلا. لكنه للمرة الأولى يشعر بالسكينة وباليقين بأنه عاد إلى المكان المحدد الذي انطلق منه يوما ما، من نفس المكان، في نفس الساعة وفي نفس الفصل، كما تتحد عقارب الساعة حينما يحين منتصف اليوم. كان يطفو في حالة من نصف الخمول وهو يهدهده صراخ أطفال الساحة وهمس الأحاديث التي تحيط به. السابعة مساء. كان رود ميلر قد أخبره بأن المكتبة تبقى مفتوحة حتى ساعة متأخرة جدا من الليل.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الأُفق

باتريك موديانو

تُوازي هذه النُتف من الذكريات سنوات عمركَ وقد شَقت مقاطع الطرقات مسار حياتك وشُرعت أمامك المخارج تلو المخارج لدرجة تشعر بحرج الاختيار بينها. كانت الكلمات التي يملأ بها دفتر مذكراته تشير إلى المقال المتعلق ب «المادة المظلمة» والذي كان قد بعث به إلى دورية تعنى بمجال الفلكيات. خلف الأحداث المحددة والوجوه المألوفة يقبع إحساس بكل ما صار لاحقا مادة مظلمة: لقاءات قصيرة، مواعيد لم تتحقق، رسائل ضائعة، أسماء وأرقام هواتف ترتسم في مذكرة قديمة والتي نسيتَها وكل أولائك الذين واللواتي مررت بهم في طريقك دون أن تدري بذلك. وكما في علم الفلك، فإن هذه المادة المظلمة كانت أكبر حجما قياسا بالجزء الظاهر من حياتك. لقد كانت غير محدودة. وهو لا يحتفظ في مذكرته سوى بذلك البصيص الذي يومض في جوف هذه الظلمة. كم كان وانيا هذا الوميض بحيث أنه كان يطبق عينيه ويركز انتباهه بحثا عن جزئية دالة ستسعف في إعادة صياغة الكل، غير أنه لا يوجد أي كل، لا شيء سوى هذه الشذرات، غبار النجوم. لشد ما رغب في أن يغوص في أحشاء هذه المادة المظلمة، أن يصل الخيوط الممزقة بعضها ببعض، نعم، ويرجع إلى الوراء ليمسك مرة أخرى بهذه الظلال وأن يعلم أكثر عنها. مُحال ذلك. إذن لم يتبق له سوى العثور من جديد على الألقاب. أو حتى الأسماء. لعلها تسعف كنقط جذب. ستبعث إلى سطح الوجود انطباعات ملتبسة وجدتَ العناء الكبير في توضيحها. أهي من طبيعة الأحلام أم من نسج الواقع؟

صدر أيضاً للمؤلف:

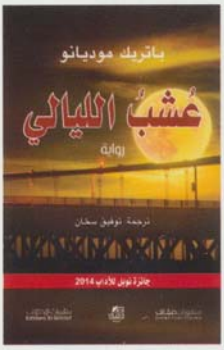

مكتبة كل شيء
e-mail: info@kul-shee.com
www.kul-shee.com

ISBN: 978-614-02-1002-8
9 786140 210028

Avec le soutien du CNL

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com